بين عرة والندوة

وضعه بالانكليزية

السير وليم ويلكوكس

نقله الى العربية

الدكتور احمد سوسه و محمد الهاشمي

المهندس في مديرية الري العامة المدرس في الاعدادية المركزية

وفق الطبعة الانكليزية الثالثة سنة ١٩٢٩

لا ينبغي للمرء ان ينال أمنيته في الحياة الا بالتوسل العميق والدعاء الحار الى ذلكم الروح الازلي الذي يفيض على النفس الواهبة بالحكمة والمعرفة فيرسل فيضا من نوره الوضاء وذلك لينير الطريق امام من يختارهم من الناس . ملتن

الجزء الاول

حقوق الطبع والنقل محفوظة للمترجمين

مطبعة الحكومة ـ بغداد

١٩٤٣

مكتبة ديوان وزارة الري

السير وليم ويلكوكس

(١٨٥٢ ـ ١٩٣٢)

مقدمة المترجمين

غير خفى على القراء ان السير ويليم ويلكوكس ، واضع هذا الكتاب ، يعد من الرجال الثقاة الذين شهد لهم العالم بسعة النبوغ والمقدرة الفنية ، وذلك بفضل البحوث القيمة والدراسات العميقة التى قام بها وما تم على يديه من المشاريع الخطيرة التى غيرت مجرى الحياة فى بلاد الشرق وبدلت كثيرا من الاوضاع الاقتصادية فيها .

ولد السير ويليم ويلكوكس فى الهند فى منتصف القرن الماضى وقضى ما يزيد على احدى عشرة سنة فى مزاولة هندسة الرى هناك ، فاكتسب خبرة واسعة وحاز على ثقة الاوساط العلمية ؛ وصادف فى ذلك الوقت ان الحكومة العثمانية كانت تنوى اصلاح الحالة فى امبراطوريتها المتهدمة ، وذلك بادخال اساليب المدنية الغربية والاستعانة ببعض الخبراء من اوروبة ، فاختارت السير ويليم ويلكوكس للعمل فى الاستانة كمشاور فنى لها ؛ ثم اوفدته الى مصر لمعالجة شئون الرى هناك فوضع تصميم خزان أسوان ، ذلك المشروع الحيوى العظيم الذى يعتبر من اعظم المشاريع العمرانية التى انجزت فى الشرق بالنظر لما درء على مصر من الخيرات الكثيرة . وبعد هذه

الفترة اوفد الى العراق وقام بانشاء سدة الهندية ، فحول قسما كبيرا من اراضى العراق الموات الى حقول زراعية ؛ وقام بمشروع آخر لاخطار فيضان الفرات وهو مشروع الحبانية ، ولا يزال كرون له هذه الاعمال الجليلة بكثير من الاعجاب .

شغف السير ويليم ويلكوكس شغفا شديدا بدراسة مشاكل البلاد الشرقية ودراسة تاريخها القديم وخاصة ما يتعلق منه بشئون الرى ؛ وقد ترك لنا آثارا عديدة تشهد بما له من خبرة فنية ومعرفة دقيقة بهذه المسائل . ولعل الكتاب الذى نقلنا القسم الاول منه الى اللغة العربية من أنفس ما تركه لنا هذا الخبير ، وذلك لانه يعتبر خلاصة ما وصل اليه فى تفكيره طيلة اربع وثلاثين سنة قضاها فى البحث والتنقيب والتتبع ؛ فقد وضح فيه تاريخ نشأة الرى فى العراق منذ اقدم الازمنة ، فبين كيف تكونت الدلتا ، وكيف نشأ نظام الرى ، وكيف تطور فى مختلف الازمنة ، وذهب الى ان العراق كان مهدا لنظام « الرى المستديم » كما ان مصر كانت مهدا لنظام « الرى الحوضى » . وقد تصدى المؤلف خلال بحثه هذا الى كشف القناع عن كثير من الوقائع التى تروى عن العراق القديم ، فوجد لها حلا فى تقلبات البيئة والمناخ والظروف الجغرافية ، وبهذا اخرجها من ضمن الاساطير والخرافات الى دائرة الحقائق التاريخية الواقعية .

ثم ان المؤلف عالج فى هذه الرسالة قصة الطوفان معالجة فنية ندر ان وفق اليها احد قبله . فالناس ـ كما نعلم ـ ما فتأوا مختلفين فى تحليل هذه القصة ؛ فمنهم من يأخذ بحرفية التوراة ويرى ان الطوفان كان كارثة عامة شملت كل اقسام الارض وان الله اراد ان ينتقم من البشر فاغرقهم ونجا نوحا ومن معه ، ومنهم من يعتقد بان الطوفان كان كارثة محلية خاصة بالعراق تشبه الفيضانات العادية التى نشاهدها فى كل سنة ؛ على ان هناك فريقا ثالثا يحلو له ان يرى فى هذه القصة ما يراه من غيرها من الاساطير والخرافات التى انحدرت الينا من الاجيال القديمة . وهناك بين هؤلاء واولئك فريق آخر لا يزالون يقفون موقف المتريب الشاك ؛ اما السير ويليم ويلكوكس فقد استطاع ان يشق لنفسه طريقا وسطا بين هذه الآراء وأدى به اجتهاده الشخصى الى نتيجة ربما كانت اكثر وضوحا وانطباقا على قواعد المنطق والعقل .

لقد بعثنا الى نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية امور ، منها اننا نواجه اليوم فترة انتقال دقيقة تعتبر نقطة فاصلة فى تاريخ حياتنا العام ، ونعنى بذلك اننا على ابواب نهضة جديدة ؛ فلابد لنا والحالة هذه من ان ندعمها بالاسس العلمية ونضع لها القواعد الصحيحة والا لم تكن لنا من هذا التبدل والانتقال فائدة . ومن الواضح

ان دراسة الماضى ومعرفة التقلبات التى طرأت على البلاد فى مختلف الادوار تعتبر عنصرا اساسيا فى بناء كل نهضة حديثة ؛ ثم ان تاريخ هذه البلاد كما اثبتته التجاريب الكثيرة مرتبط كل الارتباط بحالة الرى وتقدم الاساليب الزراعية فيها ، وذلك باعتبار ان معظم الانتاج فيها موجه الى هذه الناحية . ولا يخفى ان المؤلف سرد فى هذا الكتاب كثيرا من الآراء الفنية القيمة التى كانت السبب فى نهوضها فى السابق والتى لو طبقت الآن لامكن ان تستعيد البلاد نشاطها القديم وعزتها التاريخية .

هذا ونود ان نلفت انظار القراء الى اننا راعينا فى هذه الترجمة المحافظة على المعنى الذى قصد اليه المؤلف حتى ولو أدى ذلك الى اقتباس بعض الاساليب الحديثة ، فاللغة العربية خاضعة للتطور والتجدد ككل الظواهر الاجتماعية .

لعل فى هذا الكتاب ما ينير لنا السبيل فى هذا الليل المدلهم ويهدينا الى الطريق السوى والله الموفق .

المترجمان

مقدمة المؤلف

يشتمل هذا الكتاب على خمسة فصول تتناول تاريخ الاحداث التى ورد ذكرها فى العهد القديم ، وهى عبارة عن محاضرات كانت قد القيت فى المعهد المصرى والجمعية الملكية الجغرافية بالقاهرة خلال سنتى ١٩١٣ و١٩١٧ . وقد ادرج هنا نص المحاضرات الثلاث الاخيرة كما القيت حرفيا ؛ اما المحاضرتان الاولى والثانية فقد ادخلت عليهما بعض تعديلات بسيطة مقتبسة من المحاضرات التى كنت قد القيتها فى الجمعية الملكية الجغرافية فى لندن فى سنتى ١٩٠٩ و١٩١١ عن جنة عدن وطوفان نوح ومن المقال الذى نشرته فى مجلة بلاكوود (Blackwood) لشهر اكتوبر سنة ١٩١٤ حول نفس الموضوع .

وهذه المحاضرات انما هى نتيجة تتبعات طويلة استغرقت اربعا وثلاثين سنة قضيتها فى البحث فى نصوص العهد القديم ودراسة المناطق التى اشار اليها ذلك العهد والتى كان يشملها نظام الرى آنذاك دراسة عملية دقيقة ؛ وقد ساعدنى على تحقيق ذلك اختصاصى فى هندسة الرى ومعرفتى اللغة العامية التى تختلف كثيرا عن اللغة العربية الفصحى .

لقد تفضل الاستاذ سايس[١] فطالع نص هذه المحاضرات المدرجة هنا وصحح فى ضوئها بعض النظريات الحديثة التى تتعلق بعلم الآثار ، ولى الشرف ان ادرج فيما يلى نص المقدمة التى وضعها لهذا الكتاب ؛ قال الاستاذ سايس :ـ

كنت انا والسير ويليم ويلكوكس نعمل معا فى حقل الآثار القديمة ، فطلب الى ان اضع لكتابه الجديد مقدمة موجزة ابين رأيى فيه . ان اول شىء لفت نظرى عند مراجعتى فصول هـذا الكتاب هو الطريقة المثلى الشيقة التى ابتكرها لمعالجة هذا الموضوع حيث لم يسبقه اليها احد ، فهو لم يعتمد على الخبرة الفنية التى اكتسبها بالدرس فحسب وانما اضاف الى ذلك تجاربه الخاصة الكثيرة المتعلقة بشئون الرى ومعرفته احوال مصر والعراق معرفة جيدة ؛ وهذا ما مكنه من ان يأتينا بمواد جديدة لحل المشاكل المعقدة التى ورد ذكرها فى العهد القديم مشفوعة بالطرق الجديدة لحلها .

---

(١) الاستاذ سايس هو احد العلماء المعروفين بتتبعاتهم الواسعة لآثار الآشوريين وتاريخهم القديم فقد اشغل منصب استاذ علم الآثار القديمة فى جامعة اوكسفورد ، وله مؤلفات عديدة فى نفس الموضوع من جملتها كتاب « تاريخ العبريين القديم » وكتاب « اوائل بنى اسرائيل والأمم المجاورة » . وفى الكتاب الاخير معلومات قيمة عن تاريخ العبريين والشعوب القديمة فى مصر وبلاد الشرق الادنى كبلاد آشور وبابل وغيرها ، وكذلك تفاصيل التواريخ للاسر المالكة القديمة فى البلاد المذكورة وترجمة عدة الواح تاريخية قديمة كلوحة قصة الطوفان ولوحة الخليقة وغيرها . « المترجمان »

والامر الآخر هو ان المؤلف لم يعبأ بالتفاسير الشائعة لدى الناس وبالنظريات المعترف بها فى الاوساط العلمية ، بل على العكس نراه قد هاجم تلك الآراء وحمل على تلك النظريات ، معتمدا على قوة المنطق وسلاح العلم التجريبى ، غير ملتفت الى ما يترتب على ذلك من نتائج . ومع انى لا اتفق واياه فى جميع ما ذهب اليه الا انى اعترف بانه لا يمكن غض النظر عن النتائج التى انتهى اليها ، وذلك بالنظر لاهميتها من وجهة النقاش والجدل العلمى .

والذى يقرأ الفصل الاول من هذا الكتاب بامعان يخرج بنتيجة واضحة ، هى ان البراعة التى خطته انما هى براعة شخص فنى قدير لم يكتف بالبراهين المنطقية ، وانما عزز اراءه بالادلة العملية واثبت وجهات نظره بالمشاريع العظيمة التى اقامها فى ارض العراق ، فاعاد اليها جنة عدن مرة اخرى واحيى ٣٠٠،٠٠٠ ايكر من الاراض الموات المندرسة حتى صار من الممكن لجيوش الامبراطورية البريطانية ان تعتمد الى حد بعيد على غلات البلاد فى تموين نفسها . ومما يجدر بالذكر ان المعنى الذى استظهره من كلمة « ايد » العبرية وهو « الفيضان » او « الاغمار » ، والتى فسرت خطأ بالضباب حسب ما ورد فى الترجمة الانكليزية للعهد القديم تؤيده ادلة واضحة من علم « فقه اللغة » ؛ ذلك لان هذه الكلمة هى احدى

الكلمات الكثيرة التى اقتبسها العبريون من السومريين ، (البابليين القدماء) ، وكان يقصد بها عندهم « الفيضان » او « الاغمار » ، وكانت تطلق بصورة خاصة على فيضان النهر . وبهذا يظهر ان المقصود فى هذا الباب من عبارة « يطلع من الارض ويسقى كل وجه الارض » كما ورد فى الترجمة الانكليزية هو : « يجرى على الارض ويسقى كل وجه الارض » .

اما الفصل الذى يتعلق بالطوفان فانه يلقى ضوء جديدا على التاريخ ، كما ان القارىء يجد فى الفصل الذى يتعلق بمسألة الاوبئة التى حدثت فى مصر ما يثير الاهتمام ؛ ففى هذا الفصل يوضح السير ويليم ويلكوكس بان الوباء لم يكن امرا خاصا بالازمنة الماضية فحسب وانما هو امر يمكن حدوثه فى الوقت الحاضر ايضا ، او انه لابد من حدوثه كلما حصلت اضطرابات خارجية وكان مستوى النيل واطئا ؛ وكل من عاش فى مصر وعرف احوالها الداخلية لا يسعه الا ان يقتنع بذلك . والذى يلفت النظر بصورة خاصة ايضاحه الحقيقة القائلة بان هنالك بعض انواع الاوبئة لم تحدث فى ارض كوشن حيث يسكن الاسرائيليون ، وهذا الايضاح لا يستطيع ان يدلى به الا شخص اتخذ رى مصر مهنة له .

بيد ان مقترحات السير ويليم ويلكوكس ووجهات نظره الحديثة لم تقتصر على المواضيع الهندسية فحسب وانما كان من حين الى آخر يبدى ملاحظات من شأنها ان تزعزع المعتقدات القديمة الراسخة فى النفوس ، ويقترح مسلكا جديدا للتفكير والبحث العلمى . فقد ذهب الى ان « قاديش بارنيا » كان المعبد الصحراوى الذى يبعد مسيرة ثلاثة ايام والذى كان موسى النبى قد فكر فى بادىء الامر ان يأخذ بنى اسرائيل اليه ، مع ان من الصعب على الانسان ان يدرك لماذا لم ينبر احد من المؤرخين الى ذكر ذلك قبله. وقد قرر ان الالواح التى كتب عليها النص الاصلى لشريعة موسى كانت من الطين لا من الصخر ، وذلك لان الصخور الحجرية كانت ثقيلة نوعا ما بحيث يتعذر نقلها من مكان الى آخر كما ان من الصعب تكسيرها ؛ وقد ايد ذلك بالقياس على الالواح التى كتبت عليها شرائع حمورابى التى كانت من الطين ، أضف الى ان الطين كان مادة الكتابة التى كانت مألوفة فى القسم المتمدن من غرب آسيا فى عصر موسى ، وقد كتبت عليها الوصايا العشر ايضا وذلك فى الخط البابلى وباللغة البابلية .

اما الفصل الذى يتعلق بطريق خروج بنى اسرائيل من مصر فانه يعيد الى الذاكرة الخلاف القديم الذى ذكره المؤرخون حول

هذا الموضوع ، وهناك مجال واسع للكلام حول نظرية (بروكش) التى احياها السير ويليم ويلكوكس وأيدها باقوال جديدة من عنده . وعلى كل فانا ميال الى النتيجة التى انتهيت اليها حول ذلك فى كتابى « تاريخ العبريين القديم » ؛ هذا ولا يخفى اننا اذا رجعنا الى النص الوارد فى العهد القديم نجد هناك رأيين متضاربين ، اولا من حيث تعيين المكان الذى عبر فيه بنو اسرائيل البحر الاحمر ، وثانيا من حيث المقصود من الكلمتين « البحر » و « يام سوف » او « البحر الاحمر » فهل ان المراد بهما معنى واحد او انهما يشيران الى مدلولين مختلفين . لكن مما لاشك فيه ان « البحر القصبى » الذى ورد ذكره فى العهد القديم لم يكن بحرا بالمعنى الذى نفهمه الآن من هذه الكلمة وانما كان عبارة عن مجرد بحيرة صغيرة او مستنقع نهرى فقط .

القاهرة ، مايس ١٩١٨ .

أ . ه . سايس

الفصل الاول

« جنة عدن وطوفان نوح »

١ ـ لقد شرعت فى دراسة بلاد العراق وهى الارض التى كانت فيما مضى مهدا لجنة عدن ، مقتفيا آثار الانهر الاربعة التى ورد ذكرها فى سفر التكوين ، « وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير اربعة رؤوس » ، ومستعينا بالخرط والمستويات التى توضح طوبوغرافية البلاد ؛ فظهر لى ان دلتا الفرات كانت فى ذلك الوقت تبدأ من نقطة تقع على بعد بضعة اميال جنوبى بلدة هيت (ابواب بابل) وتمتد الى مسافة طويلة تنتهى بالخليج الفارسى . اما « ابواب بابل » هذه فهى التى دخل منها كورش الصغير فى حملته مع العشرة آلاف جندى[1] السهول

---

(١) ان العشرة آلاف جندى المشار اليهم هنا يؤلفون الحملة العسكرية التى قام بتنظيمها كورش الصغير فى اليونان فى اوائل القرن الخامس قبل الميلاد ووجهها ضد اخيه ارتاكسركس للاستيلاء على عرش المملكة الفارسية فى بابل وقد عرفت هذه الحملة بأسم حملة العشرة آلاف . والطريق الذى سلكه الجيش عند مجيئه الى العراق هو طريق الفرات الايسر الذى يسير بمحاذاة النهر حتى موقع كونكسا الكائن بالقرب من الانبار حيث وقعت معركة أدت الى مقتل كورش

الدلتاوية بعد ان عبر الصحراء ، وهى التى سماها الاسرى اليهود الذين جيء بهم الى بابل فى عهد بختنصر « ابواب الجنة » وذلك حسب ما ورد فى الاساطير القديمة لبنى اسرائيل .

٢ ـ ويظهر ان الحوادث التى ورد ذكرها فى الفصول الاولى من سفر التكوين وقعت فى ارض لا تجود سماؤها بالامطار بل كان جل اعتماد السكان فيها على الرى ، ولذا فيعتبر علم الرى اقدم ما عرفه الانسان من العلوم . ويكفى ان نورد هنا ما جاء فى الاصحاح الثانى من سفر التكوين : « الرب الاله لم يكن قد امطر على الارض الا انه كان ضباب يطلع من الارض ويسقى كل وجه الارض » . ومن البديهى انه لا يمكن ان يؤمن الضباب المذكور مهما كانت الحالة اولية بقاء البساتين ونمو الاشجار والنخيل ، وهذا ما يؤدى بنا الى الاعتقاد بان المقصود بكلمة « ضباب » هو « الارواء السيحى » الذى يختلف اختلافا ظاهرا عن « الارواء بالواسطة » ، وهو الذى عبر عنه الاصحاح الحادى

وتشتت شمل جيشه . وقد كتب احد مرافقى الحملة المدعو زينوفون كتابا يتناول الحوادث المتعلقة بكيفية حشد الجيش فى اليونان والوقائع التى حصلت اثناء المسير من اليونان حتى وصول الجيش الى موقع المعركة ، ثم تفاصيل الحوادث المتعلقة بعودة الجيش عن طريق دجلة بعد انكساره (راجع كتاب «المصادر عن رى العراق » للدكتور احمد سوسه ص ١٥٥ ـ ١٥٦ والفقرتين ٢١ و٢٢ من هذا الكتاب) . « المترجمان »

عشر من سفر التثنيه بـ « الأسقاء برجل المرء » . وقد أكد لى الاستاذ سايس عند اللجوء الى رأيه فى هـذا الموضوع ان كلمة « ضباب » العبرية هذه لم يرد لها ذكر فى اى مكان آخر من العهد القديم وان خير مدلول لها هنا هو « الرى السيحى »[1] .

ويغلب على الظن ان اقدم الاقوام التى استوطنت ارض مصر والعراق ، والتى انتجت اقدم مدنية عرفها العالم ، انما نزحت من الجزيرة العربية وذلك لان هـذه البلاد تتصل اتصالا مباشرا بالصحراء .

٣ - ويبدو ان ظهور الجنس البشرى اول مرة انما كان فى مناطق حبتها الطبيعة بنعمة الغيث الوفير حيث العشب الكثير والغابات الكثيفة التى تغطى وجه الارض بخضرتها ، وهـذه الغابات هى التى كفلت بقاء الجنس البشرى وحافظت عليه من خطر الوحوش الضارية المحدقة به من كل جانب ، اذ كانت بمثابة الملاجىء الطبيعية التى تقيه عدوانها وشرها . وقد كان « تنازع البقاء » فى مثل هذه البيئة القاسية بالغا أشده ، ولذا فلم يكن لدى الانسان الاول متسع من الوقت ليعمل عملا اساسيا فى

---

(١) راجع مقدمة المستر سايس حول ذلك .

سبيل تمدنه وتقدمه العمرانى ؛ على ان الحالة تغيرت كثيرا عندما بدأ الانسان ينزح الى الواحات الكائنة فى وسط الصحارى او الى ضفاف الانهار كالبقعة الكائنة بين عنه وهيت فى اعالى الفرات حيث اصبح فى امكانه التغلب على الوحوش الضارية ويقضى عليها ، وذلك بالنظر لظروف البيئة الجديدة التى أدت الى فنائها بالمرة . ومن هنا صار فى مقدور الانسان ان يعمل لتمدين حياته ؛ وما جاء فى الاصحاح الرابع والعشرين من سفر العدد ، عمّاليق اول الشعوب ، انما كان يقصد به العرب الذين كانت مواطنهم تمتد من مصب النيل الى هيت والفرات ، وقد ورد ذلك ايضا على لسان النبى الوثنى الذى كان يسكن الفرات والذى كان استعراضه لاحوال العالم الاسيوى الغربى وديانته فى ذلك الوقت مصدر وحى للشعب الاسرائيلى فيما بعد .

لم يترك لنا العرب الاقدمون الذين سكنوا الخيام واتخذوا آنيتهم من اليقطين ما تركه لنا المصريون والبابليون من الآثار . لقد قذفت الجزيرة العربية من اعماقها المحرقة بابنائها الاشاوس الذين استعمروا سهول النيل والفرات ؛ ومن السهل على الانسان ان يدرك السبب الذى من أجله تفوق سكان سهول الفرات على منافسيهم من سكان سهول النيل ، وذلك لان كل شىء فى مصر

سهل وكان الحصول عليه لا يحتاج الى كبير جهد وعناء ؛ فالنيل كان ولا يزال يجرى بانتظام ووقار وهو يحمل فى كل عام كميات معتدلة من الترسبات ، ولذا فهو لا يخلق لسكان هذا الوادى مشاكل صعبة . ولما كانت ارض مصر الخصبة (جنة الله) ذات مناخ رائق فى الشتاء ومعتدل فى الصيف فانها لم تنتج افكارا عالية ، ولم نجد من بين ابنائها من اتصف بالرشاقة او كانت له تلك النظرات البعيدة التى ترقى الى السماء فترى ما هناك ثم تهبط الى الارض . اما الحالة فى العراق فتختلف عن مصر كثيرا ، فالسيول الجارفة التى تملأ حوضى دجلة والفرات فى موسم الفيضان يحتاج التغلب عليها وضبطها الى قوة خارقة ؛ ثم ان اراضى بابل خصبة جدا الا ان شتاءها قارس فى حين ان الصيف فيها شديد الحرارة وطويل الامد ، هذا كما ان الفرق بين درجة الحرارة فى فصلى الشتاء والصيف يبلغ نسبة ٢٠ الى ١٢٠ درجة . وهذه البيئة الخشنة والقاسية التى نشأ فيها سكان بابل هى التى اوجدت فيهم هذا الارهاف فى الحس والقابلية الفكرية العظيمة .

٤ ـ لقد اتجه الساميون القدماء (الاكاديون كما كانوا يسمون انفسهم) الى الفرات بعد انتركوا وطنهم الاصلى الذى عاشوا فيه والذى تتوفر فيه الامطار الموسمية المنتظمة ، وكانت

الواحة الاولى التى واجهوها فى طريقهم هى البقعة الكائنة بين عنه وهيت ، فاتخذوا هذا القسم الشمالى من بلاد العرب موطنا لهم وسكنوا هناك ؛ والى هؤلاء الساميين القدامى ينتمى عرب الشمال كما ينتمى اليهم بنو اسرائيل ايضا . والفرات فى هذه المنطقة يمر بسلسلة من الشلالات غير المنتظمة حيث يستخدم التيار المتكون منها فى تدوير النواعير الكبيرة التى ترفع المياه فتسقى الوادى الضيق الذى ينتهى بالصحراء . وقد كانت هذه البقعة ولا تزال ملأى بالحدائق والبساتين تتخللها حقول الذرة والقطن ؛ وليس هذا بالامر الغريب ، فالحياة والرخاء لا تنشطان الا حيث تتوفر المياه ؛ اما اليوم فبعد هبوط تلك الشلالات ـ ذلك الهبوط الذى ورد ذكره فى كتابات عصر اوغسطين ـ فقد أصبح من الضرورى الاستعانة بالنواعير فى ارواء تلك البساتين والحدائق . وتدل الطبقات الرسوبية التى نلاحظها فى النهر فوق منسوب أعلى الفيضانات الحالية ان المياه كانت منذ زمن غير بعيد تؤخذ بالطريقة السيحية من مقدم الشلالات فتروى بها البساتين التى كانت واقعة جنوبى الشلالات والتى كانت بعيدة عن اخطار الفيضان . هكذا كانت جنة عدن الوارد ذكرها فى العهد القديم ؛ اما اليوم فأول شىء يواجهه المرء فى هذه البقعة عندما ينزل فى اتجاه الفرات هو

النخيل ، ذلك الشجر الذى يعتبر رمزا لحياة الامة العربية فى جميع اطوارها ؛ ولعل من المفيد ان نذكر هنا استطرادا ان العادة المتبعة فى البلاد العربية تقضى بان الشخص الذى يغرس نخلة فى ارض ما فانه يكون مالكا لها ولو وقع الغرس فى ارض غيره او وقع فى ارض لا تعود الى احد . لم تقتصر هذه البقعة على اشجار النخيل فحسب وانما كانت حقول الحنطة الطبيعية الكثيفة تمتد فيها من الفرات الى دمشق .

٥ ـ استهدفت خلال اقامتى فى العراق زهاء ثلاث سنوات دراسة نهر الفرات من اقصاه الى اقصاه ، وذلك لاصل الى معرفة البقعة التى يمكن ان يؤمن وصول المياه السيحية اليها فى جميع فصول السنة ، فظهر لى بعد تلك الدراسة العميقة ان المكان الوحيد من جنوب هيت الذى يمكن ان يجهز بالمياه السيحية طول فصول السنة انما هو البقعة الكائنة قرب الخليج الفارسى جنوبى الناصرية بجوار مدينة ايريدو القديمة . فهذه البقعة التى هى عبارة عن مجموعة من الاهوار ، والتى شملتها يد العمران ، كانت مركزا لجنة عدن السومريين ، وسنتكلم عن هذه الجنة فيما بعد ؛ والدليل على ذلك هو ان الاراضى الواقعة بين هيت وبين منطقة الاهوار التى تبدأ بمدينة الناصرية شمالى مدينة اور الكلدانية لا يمكن ان

تؤمن لها الحياة الزراعية المستديمة طول السنة ، حيث ان القسم من اراضى هذه المنطقة الذى يسقى سيحا فى فصل الصيف بسبب هبوط مستواه بالنسبة الى منسوب ماء النهر يصبح معرضا لخطر الفيضان فى فصل الشتاء ، كما ان القسم الذى لا تصله المياه الا فى موسم الفيضان بالنظر لارتفاع مستواه بالنسبة الى مستوى النهر لا يمكن ان تؤمن له المياه المطلوبة للزراعة فى فصل الصيف . وعلى هـذا فاذا سرنا جنوب هيت فاننا لا نجـد منطقـة تصلح للارواء المستديم طول العام حتى نصل الى منطقة الاهوار المذكورة .

٦ ـ اما الجنة التى ورد ذكرها فى العهد القديم والتى سبق ان نوهنا عنها (وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير اربعة رؤوس) فهى عبارة عن حديقة غناء مليئة بالنخيل ـ تلك النخيل التى لا تزال حتى يومنا هذا تمثل شجرة الحياة ـ وباشجار الكروم (شجر المعرفة الذى حرم أكله) . اما التربة والمناخ هنا فيصلحان بطبيعتهما لنمو الاشجار المثمرة على اختلاف انواعها ؛ غير ان النخل يعتبر من أهـم ما تنبتـه هذه التربة وذلك لسهولة غرسه ، وكما يقول الناس : « أغرسه فى الماء واتركه فهو ينمـو بطبيعته » .

وكان النهر ينقسم جنوب جنة عدن الى اربعة فروع رئيسية ، يسمى الاول فيشون ، وهو يشمل منطقة منخفضات الحبانية وأبى دبس الواقعة بين الرمادى وكربلاء والتى تغمرها المياه ايام الفيضان . والمعتقد قديما ان هذه المنخفضات يتصل بعضها ببعض، ولكن المسح الحديث والتسوية اثبتا نقيض ذلك . وكنت قد وضعت مشروعا لوصل منخفض الحبانية بأبى دبس واستخدامهما لخزن المياه لاغراض الرى وصرف المياه الزائدة فى الفيضان ايضا ، وقد بوشر بتنفيذ هذا المشروع . ونهر فيشون هذا كان فى نظر البابليين يشمل كل منطقة الحويلة ـ تلك المنطقة الواسعة الواقعة بين حدود مصر وبلاد آشور ـ وذلك لانهم رأوا ان هناك مئات من الاميال المربعة من الصحراء مغطاة بالماء بجوار هذه المنخفضات، فظنوا ان هذه المياه تمتد الى مسافات طويلة فى الجزيرة العربية حتى حدود مصر ؛ ويرى الناظر اليوم طبقات كثيفة من المحار (الصدف الفراتى) تغطى وجه الارض من حدود النهر حتى الصحراء فى مسافة تبلغ خمسين ميلا .

٧ ـ والنهر الثانى ، جيحون (نهر الهندية الحالى) ، وهو نهر حابور الذى دفن النبى حزقيال فى احدى ضفتيه ، وكان يطلق عليه اسم (أهوا) ايضا ؛ اما فى زمن الاسكندر فكان يسمى

(بالاكوباس) ، كما انه كان يسمى نهر الكوفة فى عهد الخلافة الاسلامية . وهذا النهر يشمل كل منطقة اراضى كوش ، أبى نمرود ، الذى حكم هذه الاراضى فى زمن النبى موسى والذى ابتدأت مملكته فى بابل وأرخ واكاد وكالنة الواقعة فى سهل شنعار . وقد حكم الكوشيون هذه الاراضى مئات من السنين ؛ وفى عهد النبى موسى كان يطلق اسم (كوش) على بابل ، اما فى عهد الانبياء فكان يطلق على (اثيوبيا) .

٨ ـ والنهر الثالث ، حداقل (دقل ـ دجلة) ، او فرع الصقلاوية الحالى . ويبلغ هذا النهر حوالى ٢٥٠ قدما فى العرض و٢٥ قدما فى العمق ، وهو يشبه فى جريه وضع القناة التى تدير الطاحونة ؛ اما اتجاه جريه فينحدر اولا نحو منخفض عكركوف ، ثم يمر من هناك فيصب فى دجلة قرب بغداد . ويستطيع هذا النهر لو ترك لطبيعته ان يحمل الى دجلة كمية من المياه تزيد على نصف ما يستوعبه نهر الفرات ، ومما لاشك فيه ان الاقدمين كانوا يعتبرون هذا النهر المنبع القديم لدجلة . اما اعتقاد البابليين قديما بانه يجرى امام بلاد آشور فهو فى الحقيقة وصف مطابق للواقع.

٩ ـ والنهر الرابع ، الفرات ، وهذا النهر غنى عن التعريف والوصف فهو نهر بابل نفسه .

١٠ ـ وقد تقل البابليون الذين نزحوا الى الشمال واستمروا ينوى اسم دجلة الى النهر الذى يجرى فى تلك المنطقة ، وهؤلاء البابليون انفسهم هم الذين سموا المجرى العظيم الذى كانت ضفافه مهدا للجنس البشرى نهر بابل ؛ فكان هناك اسمان لنهرين احدهما الفرات والآخر دجلة .

١١ ـ سبق لى ان ذكرت ان مستوى الماء فى المنطقة الواقعة بين عنه وهيت قد هبط فى الخمسة الآلاف او الستة الآلاف سنة الاخيرة حتى اصبح من المتعذر ارواء الجنائن الواقعة فى تلك السهول بطريقة الرى السيحى كما كان الامر سابقا ، وغدا من الضرورى استخدام النواعير لتأمين ارواء تلك الاراضى . اما نهر دجلة فقد كان الهبوط الذى حصل فيه شديدا وفجائيا بحيث بلغ مستوى هبوط النهر فى مقدم سامراء اربعين قدما خلال القرون الخمسة الاخيرة ؛ وبذلك تحولت تلك الجنائن الخضراء التى كانت فى تلك المنطقة الى صحارى قاحلة .

١٢ ـ لقد اعتاد الشرقيون ان يعبروا عن الحوادث بالاشخاص ، فيربطون كل حادثة هامة بشخص يختارونه لها . فهم يقولون ان آدم يمثل الذكور من الجنس البشرى وحواء تمثل

الاناث من ذلك الجنس ، كما يقولون انقاين يمثل طبقة الفلاحين وقابيل يمثل طبقة الرعاة . وكثيرا ما نجد مثل هـذا التعبير فى كتاباتهم القديمة ، فمثلا يقولون ان « كوش ولد نمرود » وهم يقصدون بذلك ان مملكة البابليين اعقبت مملكة الكوشيين كما اعقب نهر بابل نهر كوثا المتشعب من الفرات ؛ فلو اردنا ان نعبر عن استقلال الولايات المتحدة بلغة العهد القديم ، لكان الواجب ان نقول ان جورج الثالث ملك انكلترا ولد جورج واشنطن الذى ابتدأت دولته فى بوستون ونيويورك وفيلاديلفيا وسافانا .

١٣ ـ ولتوضيح ذلك اذكر هنا حادثتين وقعتا لى اثناء اقامتى فى الشرق . اما احداهما فانى سألت مرة احد اصدقائى فى مصر عن السبب الذى من أجله صار المصريون يحتقرون السوريين بهذه الدرجة الشديدة ، فاجابنى الصديق بسرد هذه القصة ، قال : توفى احد السوريين فجاءت ملائكة الموت واحاطت به من كل جانب ، ولما سألوه عن اسمه اجابهم انه يدعى « حداد » ، فاستنكر الملائكة هذا الاسم وقالوا انهم لم يسمعوا قط باسم حداد او بداد ، فاحالهم ذلك السورى على أبينا آدم ؛ ولما ذهبوا الى آدم اظهر هذا جهله بالامر وردهم الى الشيطان ، بيد ان الشيطان لما علم بالامر استشاط غضبا وقال : لم يكتف آدم بأن

بلاد آشور
سامراء
اوبيس
هيت
نهر دجلة
بغداد
رمادى
طيسفون
سيبار
عيلام
أرض الكلدو
كربلاء
بابل
كوت
النيل
قبر مزقيال
كرفة
نيفر
أرض كوش
واسط
لوجش (لغش)
أهوار
قبر عزر
سوزيانا
القرنة
شوشه
البصرة
المحمرة
الزبير
الكويت
الخليج الفارسى
اور (ئل المقير)
خارطة أنهر العراق القديمة
التى ورد ذكرها فى سفر التكوين
تنظيم السير ويليم ويلكوكس مأخوذة
عن كتابه « مر جنة عدن الى عبر الاردن »
المقياس ١ : ٠٠٠,٠٠٠
ميل ١٠٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠

اخرجنى من الجنة ورمانى بعدها فى الجحيم ، وانما يريد الآن ان يرد مصير جميع السوريين الى .

لم يتغير الشرق اليوم كثيرا عما كان عليه فى السابق ، ويظهر من سفر التكوين ان المصريين كانوا يمقتون الرعاة السوريين والعرب معا مقتا شديدا . واما الحادثة الاخرى فهى انى سألت صديقا لى كانت له اكثر من زوجة واحدة : هل يكون الرجل الذى لديه ثلاث زوجات او اربع محبوبا من زوجاته كالذى لديه زوجة واحدة ؟ فقص على صديقى هذه القصة ، قال : كان هناك شخص يدعى حسنا وكانت له زوجة تدعى فاطمة ، وصادف ان مرض ذلك الشخص مرضا خطرا أشرف معه على الموت ؛ فدعا زوجته وتوسل اليها الا تتزوج بعده بسليمان ان هى ارادت ان يموت ميتة مريحة ، وذلك لان هذا الرجل (سليمان) سيء الخلق صعب المعشر ، فقالت له الزوجة : يمكنك يا عزيزى ان تموت مرتاحا لانى قد قطعت على نفسى عهدا بان اتزوج بعدك باسماعيل لا بسليمان .

١٤ - وكان الساميون الذين استوطنوا اول مرة البقعة المحصورة بين عنه وهيت يعتمدون فى حياتهم على الرى ، لكن

بعد ان هبطت الشلالات التى كانت فى تلك الاراضى حرموا من المياه التى كانت تروى مزارعهم واستحالت اراضيهم الزراعية الى صحارى قاحلة ؛ فاضطروا الى مغادرة ديارهم والاتجاه شرقا ، غير انهم لم يجدوا سوى منطقة مليئة بمنابع القار والنفط وهى منطقة محرقة وموحشة تقع شرقى مدينة هيت تماما .

١٥ ـ لكن هبوط تلك الشلالات ، وتحول الاراضى الخصبة المجاورة لها الى صحارى قاحلة ، واضطرار السكان الى الهجرة ، كل ذلك يشير الى حقيقة واقعية وهى ما لفت اليها نظرى احد زعماء قبائل العراق حين ذهبت الى زيارته فى الصحراء فى خيمته : فقد استقبلنى ذلك الزعيم ورحب بى ثم اثنى على السياسة الانكليزية التى اتبعتها حكومة الاحتلال فى مصر مستشهدا باعداد من صحيفة المؤيد التى طبعت فى القاهرة ؛ وكانت تلك الصحيفة مشحونة بسب الانكليز ونقد اعمالهم ، والانكليز مع ذلك يسمحون بنشرها . وكان الشيخ يقارن بين هذه السياسة الرشيدة وبين القسوة التى يتبعها الاتراك فى العراق اذ ذاك ، وقال لى فى ختام حديثه : لماذا لا يحاول الانكليز انتزاع العراق من الاتراك فيبسطوا العدل والحرية فى هذه البلاد ؟ فقلت له : لا فائدة لنا من ذلك ، فقد مكثنا فى مصر ثلاثين عاما ولكن

المصريين اليوم على اختلاف طبقاتهم يمقتوننا ويريدون التخلص منا ، فلو جئنا الى العراق فانكم لا تلبثون بعد عشرين عاما ان تنقضوا علينا . وبعد ان سمع الشيخ كلامى هذا هز لحيته وقال : نعم لقد صدقت ، السنا ابناء ذلك الرجل الذى باع الجنة طمعا فى ان يحصل على نعيم اكثر منها .

١٦ - ويدعى الساميون ان لهم ميزة على سائر الشعوب باعتبار انهم ينحدرون من سلالة الآلهة ، وهم فى هذا الاعتقاد يشتركون مع سائر الشعوب القديمة ، فانها كانت تدين بمثل هذه العقيدة ايضا . لقد ترك الساميون موطنهم الاصلى الذى عاشوا فيه واتجهوا صوب الشرق كما ذكرنا سابقا ؛ فاحتلوا دلتا الرافدين السفلى حيث كان السومريون هناك قد سكنوا تلك الاراضى قبلهم ، وكان مع اولئك السومريين بعض ابناء العنصر السامى ممن اضطروا الى ترك منازل آبائهم فى الخيام على اثر عراك نشب بينهم هناك . والظاهر ان اول بقعة استوطنها اولئك السومريون هى منطقة الاهوار الواقعة بجوار الخليج الفارسى ، ومن ثم نزحوا الى الشمال كما نزح الساميون الى الجنوب .

١٧ - وقد انقسم الساميون الذين نزحوا الى اسفل نهر الفرات قسمين ، فالفلاحون منهم الذين يمثلهم قاين استوطنوا

الشاطىء وانشأوا سدودا موازية للنهر لحماية اراضيهم من الغرق واخذوا يزرعون الحنطة والشعير كما يفعلون اليوم ؛ اما الرعاة منهم الذين يمثلهم قابيل فقد احتلوا الاراضي البعيدة عن النهر واخذوا يرعون ماشيتهم فى تلك السهول لما فيها من اعشاب وحشائش طبيعية . غير ان اساليب الحياة الجديدة هذه تحمل بين ثناياها عنصرا طبيعيا من عناصر النضال والخصومة بين الطرفين ، فكان حدوث اى ثغرة فى السداد يسبب لقاين كارثة عظيمة حيث تغمر المياه مزارعه ؛ ولكن هذه الكارثة نفسها كانت تعود على قابيل بالفائدة لانها كانت تنبت له العشب والكلاء الذى يرعى به ماشيته وغنمه . ولهذا فقد استمر الخلاف بين هذين الاخوين مدة طويلة حيث كانت نفس قابيل كثيرا ما تغريه بكسر السدود ، وخاصة فى سنى المحل الشديد ، وذلك لتأمين العشب لاغنامه ، الامر الذى كان يؤدى الى تخريب حقول أخيه قاين ؛ ويدل على استمرار تلك الخصومة بين الطرفين ـ بسبب تخريب السدود بين حين وآخر ـ ما ورد فى العهد القديم من ان الله كان يقبل قرابين قابيل ويزدرى قاين وقرابينه . ويظهر ان ذلك النضال بين الاخوين بلغ شدته ، فظن قاين مرة ان أخاه قام بكسر السدود فعدا عليه ودنس يده بقتله ؛ وقد كان غضب الرب لهذا الجرم

شديدا حتى انه وضع على جبين قاين علامة خاصة يهتدى بها أهل القتيل فينتقمون منه ، وذلك لان التقاليد القديمة فى ذلك الوقت كانت تقضى بذلك . ثم بعد هذه الحادثة توجه الفلاحون بقيادة زعيمهم قاين الى جهة الشرق حيث يقطن السومريون ، وهناك وجدوا لهم مجالا جديدا فى الزراعة اوسع من ذى قبل .

لقد ذكرت سابقا ان الخصومة بين الفلاحين من جهة والرعاة من جهة اخرى قديمة قدم العداوة بين قاين وقابيل ؛ وحوالى الخامس من مايس سنة ١٩٠٩ حين كان الفيضان فى نهر الفرات بالغا اقصى حدوده لاحظت ، وانا متجه الى أعلى الفرات سالكا الضفة اليسرى بين الرمادى وهيت ، اكثر من خمسين قطيعا من الغنم يبلغ كل قطيع منها المائتين تقريبا تسير فى الوادى خارجة من المنطقة الصحراوية ، وكان ظهور هذه القطعان يلقى الرعب والفزع فى نفوس الزراع . وعندما رجعت فى اليوم التالى عن طريق النهر سمعت صوت اطلاقة بندقية وشاهدت عددا كبيرا من الفرسان والمشاة يهرعون الى محل الحادث ، بعضهم يحمل المساحى والبعض الآخر بايديهم البنادق ، وكانوا على استعداد لمكافحة اولئك الرعاة البدو ولدفع خطر الفيضان ايضا .

لقد قلت لاحد اكابر الزعماء مرة : لماذا لا تقسمون الاراضى بينكم فتغمرون قسما منها بالمياه وتتركون القسم الآخر لزراعة الحنطة والشعير ؟ فقال لى : انا لا نستطيع ان نتوصل بانفسنا الى مثل هذا الحل ؛ ولكنا نتمنى لو تهيأ لنا نظام عادل يمحو هذه الضغائن والاحقاد المستمرة بيننا ، كما نتمنى ان نرى فى البلاد قوانين عملية عادلة ، عندئذ يصبح الزراع وهم الاكثرية الساحقة فى هذه البلاد من أشد الناس احتراما للحكومة وغيرة على قوانينها .

١٨ ـ وهذا يؤدى بنا الى الاعتقاد بان الرى هو الذى دفع الناس الى اقتباس النظام واحترام القوانين والرضوخ للعادات الاجتماعية ، ولعل هذا هو السر فى ان المدنيات القديمة انما نشأت اول مرة على ضفاف الانهار . يستطيع الانسان غير المتمدن ان يعيش فى الغابات ، كما يستطيع الانسان الذى لم يأخذ بحظ كبير من المدنية ان يعيش فى الواحات الصحراوية ؛ ولكن الانسان الذى يعيش فى ارض يتوقف نظام الحياة فيها على الرى يتحتم عليه ان يخضع للنظام والقانون ويكون مسئولا عنهما . ولذا لم تظهر المدنية الحقيقية الى الوجود الا بعد ان ارغمت الوف من الاسر على ان تتعلم قوانين الطبيعة وتراعى تطبيقها ، بحيث يتضامن

الافراد فيما بينهم فيعيش كل مع الآخر فى أمن ووئام حسب ما يقتضيه نظام الرى وواجباته المختلفة التى تقتضيها صيانة الاراضى الزراعية من الطوارى والمحافظة على خصوبتها . والنتيجة الطبيعية لعدم خضوع الافراد للنظام والقانون فى بلد تسود فيه وسائل الزراعة والرى تظهر بجلاء ووضوح كما ورد فى العهد القديم : « فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت امامى . لان الارض امتلأت ظلما منهم . فها انا مهلكهم مع الارض . اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر » . ومن هنا تبدأ اول قصة للطوفان العظيم الذى ظهر فى وادى الفرات .

ولاشك ان اقدم سكان وادى النيل قد شاهدوا طوفانات عديدة مرت عليهم ، ولكن النيل لا يندفع فى طغيانه ذلك الاندفاع الذى نجده فى نهر الفرات ، ولذلك فهو لم يعط دروسا قاسية كالدروس التى اعطتها الانهر التى تقطع سهل شنعار .

١٩ ـ لقد ذكرنا ان السومريين كانوا اول شعب سعى فى احياء الاراضى التى تتألف من السهل الواقع فى الجنوب قرب ملتقى النهرين ، وان الساميين الذين هاجروا من الشمال انشأوا موطنا جديدا فى القسم الاعلى من الوادى ، وذكرنا ان هناك اصطداما شديدا وقع بين مصالح الطرفين كما أشار الى ذلك العهد

القديم ، لان الارض امتلأت ظلما منهم ، . والآن نود ان نذكر ان وادى الرافدين كان ولا يزال معرضا لخطر فيضانات شديدة تختلف كثيرا عن الفيضانات التى تقع فى وادى النيل ، وذلك لان لكل من هذين الواديين صفة خاصة به تميزه عن الآخر ؛ وهـذا ما جعل لحوادث التاريخ التى تقع فى كل منهما طابعا خاصا بهما ، فمثلا ان قصة المجاعة التى حصلت فى وادى النيل فى زمن يوسف لا يمكن تحققها فى وادى الرافدين ، كما ان قصة طوفان نوح لا يمكن تحققها فى مصر ايضا . والسبب فى زيادة اخطار الفيضان فى نهرى الفرات ودجلة يرجع الى شدة انحدار اراضيهما بالنسبة الى اراضى وادى النيل ؛ ففى الوقت الذى يبلغ انحدار الارض فى وادى النيل قدما واحدا فى كل ميل ، نراه فى ارض الرافدين يبلغ فى الميل الواحد خمسة اقدام . وهذه الانحدارات الشديدة فى انهر العراق هى التى وصفها النبى حزقيال عندما كان اسيرا فى بابل ، فقال :ـ

٢٠ ـ « وعند خروج الرجل نحو المشرق والخيط بيده قاس الف ذراع وعبرنى فى المياه والمياه الى الكعبين . ثم قاس الفا وعبرنى فى المياه والمياه الى الركبتين . ثم قاس الفا وعبرنى والمياه الى الحقوين . ثم قاس الفا واذا بنهر لم استطع عبوره لان المياه طمت

مصر وبابل

تنظيم السير ويليم ريلكوكس ماأخوذة عن كتابه

«من جنة عدن الى عبر الأردن»

القياس ١ : ٥٠٠,٠٠٠,١٠

أميال ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ (٠) أميال

مياه سباحة نهر لا يعبر » . فهذا الوصف يطابق تماما نسبة الانحدار التى ذكرناها وهى خمسة اقدام فى الميل الواحد . اما ما ورد فى وصف هذه البقعة من وجود اشجار كثيرة واقعة على حافة النهر ووجود الاسماك فى المياه و « البقعة الملآنة بالعظام » ، فكل هذه الامور انما هى من مميزات وادى الفرات وخاصة فى البقعة المجاورة لقبر النبى حزقيال .

٢١ ـ وفى الوقت الذى كانت فيه عملية احياء الاراضى تتقدم من الشمال كانت الجماعات السامية قد بدأت اعمالها الجريئة لتنظيم حالة الرى هناك ، فقامت بانشاء السدود الترابية على بعض فروع الانهر لقطع المياه عنها . واذا حكمنا انفسنا مسترشدين فى ضوء التصاريف والمستويات ، امكننا ان نقول ان اول سد ظهر من هذا النوع هو السد الذى اقيم على صدر نهر حداقل او صدر نهر الصقلاوية الحالى ؛ فهذا السد هو الذى عبرت عليه جيوش كورش الصغير ومنه تقدمت لمقابلة جيش ارتاكسركيس فى ساحة كوناكسا ، على ان ارتاكسركيس هذا قام بتخريب السد المذكور بعد ان عبرت عليه جيوش كورش ؛ وهكذا انقطع طريق الرجعة عن جيوش كورش وزينوفون المنكسرة ، الامر الذى اضطرها الى عبور نهر دجلة والانسحاب شمالا حتى وصلت الى البحر الاسود .

ومما يجدر ذكره هو ان الاتراك خربوا هذا السد فى ربيع سنة ١٩١٧ عندما اضطروا الى ترك مدينة بغداد والانسحاب الى اعالى وادى الفرات ، الا انه قد اعيد انشاؤه من جديد فى نفس السنة .

ان النزاع الذى استمر بين تلك الجماعات المختلفة التى سكنت هذا الوادى فى اقدم الازمنة وما ترتب على ذلك من نتائج مريعة القى الرعب فى نفوس بعض المفكرين الذين كانوا يعيشون فى ذلك الوسط . وكان نوح احد اولئك المفكرين الذين خافوا عاقبة الامر فتهيأ لمجابهة الحدث الرهيب الذى ينتظره ، فصنع لنفسه فلكا من خشب الحور الذى تكثر اشجاره على ضفاف الفرات وطلاه من الداخل ومن الخارج بالقار المستنبط من هيت ، وذلك بنفس الطريقة التى تطلى بها « الكفة » اليوم على الفرات .

ويشعر سكان الاقسام الواطئة من الدلتا بأثر الفيضان بشكل ظاهر ، وذلك لهبوط مستوى الارض الصحراوية هناك ، وخاصة بعد ان اقيم السد الترابى فى صدر الصقلاوية ، ذلك السد الذى ضاعف من تصريف مجرى الفرات ؛ يضاف الى ذلك كثرة مياه الامطار التى تنحدر الى الوادى . وقد اصبح الحال بعد ان اقيم هذا السد ان المياه اخذت ترتفع الى مستوى اربعة وعشرين قدما بدلا

من ستة عشر قدما كما كانت الحال قبلا فى الفيضانات العالية الاعتيادية ، وبذلك شمل الاغمار اراضى الصحراء بعد ان كان مقصورا على الاراضى الزراعية فقط ؛ ومما يجب الانتباه اليه انه لم يكن يقصد سكان وادى الفرات او سكان وادى النيل بلفظة « كوره » او لفظة « جبل » ما يفهم منهما الآن ، بل كان المقصود من هاتين اللفظتين الصحراء نفسها ، وذلك لان معنى « جبل » لا يمكن ان يراد به هنا ، اذ ليس من المعقول ان يغمر الماء البالغ ارتفاعه اربعة وعشرين قدما ارضا عالية او جبلا بالمعنى المعروف . نعم ، يمكن ان يغمر السهول الصحراوية فقط ، لذا فان ما ورد ذكره فى العهد القديم « خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال » يجب ان يصحح هكذا : « خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الاراضى الصحراوية » . وهذا الخطأ ناشىء من ان المترجمين العبريين الذين نقلوا العهد القديم من المتن الاصلى لم يصلوا الى المعنى المقصود من هذه الكلمة فنقلوها خطأ ، وقد احتذى المترجمون من الانجليز حذوهم فى هذا الخطأ

٢٢ ـ وفى السنين الاولى من الاحتلال عندما كنت فى مصر كان يسألنى الاهلون عما اذا كان الانكليز فى بلادهم يأخذون فى الارواء بالنظام الحوضى او بنظام المجارى ؟ وعندما كنت اقول لهم

انه لا يوجد فى انكلترا رى من كلا النوعين كان التعليق على ذلك : اذن كيف يعيش الناس فى الجبل (او بلغة المصريين « كبل ») ؟ ويقصد بكلمة « جبل » فى اللغة العربية الفصحى كل مرتفع سواء أكان تلا بسيطا او جبلا شاهقا ، ولكن فى اللغة العامية وحتى فى بلاد العرب نفسها تطلق هذه الكلمة على الاراضى الصحراوية . اما فى مصر اليوم فان كلمة « ريف » يراد بها السهول الزراعية ، وما عداها فتطلق عليه كلمة « جبل » ، ويدخل فى ذلك الصحراء والسهل والتل والجبل العالى . وقد صادف اننى عندما كنت مديرا عاما لتقدير ضريبة الارض فى مصر ان قمت بذرعة بعض الاراضى لتحديد مقدار الضريبة فيها ، وكان فى وسط تلك الاراضى قطعة غير مزروعة تبلغ مساحتها ايكران وارتفاعها اربعة اقدام ؛ فلما اقترحت طرح هذه المساحة الصغيرة غير المزروعة من مجموع مساحة الاراضى المخمنة ، قيل لى : نعم ، يجب ذلك لانك لا تستطيع اخذ ضريبة على الجبل . وقد ذكرت هذه القصة للكولونيل رمزى المقيم البريطانى فى بغداد والمستر وان ايس عضو البعثة التبشيرية فى البصرة اللذين كانا معى فى رحلة على ظهر زورق صغير فى اهوار مدينة النجف ، فاتفقنا على ان نتحقق ما اذا كان لهذا الاصطلاح نظير فى العراق كما هو الحال فى مصر ؛ فلما اقتربنا من الشنافية

شاهدتا على بعد اراضى صحراوية واطئة ، فسألت الملاحين عن اسم هذه الاراضى فقالوا فى الحال انها « الجبل » . وفى الحقيقة لم تكن تلك الاراضى اكثر من تل بسيط وربما كانت لا تشبه الجبل اكثر مما يشبهه تل (لود كايت) .

٢٣ ـ ظهرت فلك نوح عائمة على سطح الماء اول مرة فى احدى مدن الفرات الادنى (فى فرع نهر كوثى المندرس اليوم) فسارت الى جهة الجنوب الشرقى مدفوعة بقوة تيار الماء وقوة الرياح الشمالية والشمالية الغربية . ولما كانت مياه دجلة القديم تأتى من الشمال مدفوعة بقوة التيار فتلتقى بمياه الفرات فى اور الكلدية ، فلابد ان يكون التيار قد جرف الفلك بعد ان وصلت الى هذه المنطقة ، فاندفعت الى المنطقة الصحراوية الواقعة جنوب مدينة اور . وهنا يظهر تارح ابو ابراهيم ويظهر معه نظام الاسرة ، ذلك النظام الذى يوكل فيه الحكم الى اكبر الافراد ، فتستقر الاسرة التى تخضع لمثل هذا النظام وتتوطن فى مكان خاص ؛ غير ان ولع ابراهيم بالاسفار والتنقل ، ذلك الولع الذى اكسبه لقب « عبرى » ، جعله يشذ عن هذه القاعدة .

٢٤ ـ وقد لاحظت عندما كنت فى اور الكلدية ان العرب يطلقون على المرتفعات الواقعة جنوبى اور كلمة (نواس) فى حين ان كلمة نوح فى العربية تطابق كلمة (نووح) العبرية .

٢٥ ـ ويدعى الجبل الذى رست عليه سفينة نوح جبل ارارات ، ولكن عندما نزح احفاد تلك الاسر العبرية من الجنوب واتجهوا الى الشمال وأسسوا وطنا جديدا هناك اطلقوا على المرتفعات التى واجهوها فى تلك المنطقة اسم ارارات ، وذلك ليشيروا بها الى البقعة التى كانت قد رست عليها سفينة نوح فى الجنوب ؛ ولذا فالجبل الذى هو فى بلاد ارمينيا اليوم والذى يطلق عليه اسم ارارات لا صلة له بجبل ارارات القديم الذى رست عليه سفينة نوح اكثر من صلة نيويورك بيورك القديمة .

٢٦ ـ ويعتقد الاقدمون الذين نقرأ اخبارهم فى سفر التكوين ان الفيضان لم يكن مقصورا على اراضى الفرات ودجلة ودلتاهما فحسب وانما كان طوفانا عاما شمل كل اقسام الارض ، وذلك لانهم رأوا الناس على اختلاف انواعهم يهجرون اماكنهم ويلتجئون الى هذا الوادى بعد ان اعيد اليه النظام والاستقرار من جديد . ولم يكن لديهم تعليل لاختلاف لغات سكان هذا الوادى ،

ذلك الاختلاف الذى ظهر فجأة ، سوى انه الهام من الله اراد ان يحقق به مطامح البشر فى الحياة . وقد اشار الى ذلك العهد القديم فقال : « وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون ان يعملون. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ».

٢٧ ـ والصورة التى يرسمها لنا العهد القديم فيما يتعلق بقصة الطوفان مأخوذة بحذافيرها من القصص السومرية القديمة ؛ لكن تمتاز القصة السومرية فى وصفها للظواهر الطبيعية ، فى حين ان قصة العهد القديم تمتاز فى تصويرها لفكرة الآله كما يمتاز تمثال الملك رعمسيس عن تمثال احد افراد شعبه .

٢٨ ـ لقد اشرنا فيما سبق الى الخصومة العنيفة التى حصلت فى العراق بين سكانه ؛ والآن نود ان نشير الى ان اولئك السكان سئموا من الفوضى والاضطراب اللذين سادا فى البلاد ، واصبحوا فى وضع يتقبلون فيه اى شخص قوى يستطيع ان يقضى على تلك الاضطرابات ويرد الامن والنظام الى نصابهما ، وذلك لان البلاد لا تستطيع ان تحيا وتتقدم بدونهما ؛ واخيرا وجدوا ضالتهم المنشودة فى شخص « نمرود الجبار » . والغريب ان سكان العراق لا يزالون

حتى اليوم على تلك الحالة ؛ فقد شاهدت ثمانمائة فلاح مسلح من الاعراب من الذين تطوعوا لمساعدة الحكومة فى استتباب الامن . ويوجد فى كل أسرة عربية كأسرة اسحق مثلا بعض افراد يميلون الى السلم كيعقوب ، كما يوجد بعض افراد يميلون الى غير ذلك كعيسى البدوى ؛ وبهذا يظهر انه لا توجد لدى الزراع اليوم فى العراق فرص ملائمة تمكنهم من الاستقرار ، وذلك لانهم عندما يتخذون ارضا يستوطنون فيها سرعان ما يداهمهم فيضان قوى يضطرهم الى التخلى عن اراضيهم واثاثه فى الصحارى . ولذا لو اتيح التغلب على اخطار الفيضانات وبدىء بتأسيس مشاريع للرى المنظم لاصبح اكثر الشعب ميالا الى النظام واحترام القوانين .

٢٩ ـ وما دامت اراضى الدلتا فى العراق معرضة لاخطار الفيضان ، وليس فى البلاد من مشاريع الرى المنظمة ما يكفل لسكانها الاستقرار والثبات ، فان هؤلاء السكان سيظلون محتفظين بكثير من خصائص ذلك الشعب الذى اندفع من الشمال ودخل تائها سهل شنعار ، فتعاطى مهنة الزراعة لا رغبة فيها وانما اضطر اليها سدا لحاجات افراده الكثيرى العدد ؛ ولقد صرح لى الشيخ خزعل امير المحمرة بهذه الحقيقة فقال : ان العرب انما يرغبون اليوم فى ادخال اساليب الرى الحديثة فى بلادهم ، لا لانهم يميلون

بطبيعتهم الى الزراعة ، بل لان مهنة الرعى اصبحت لا تسد حاجاتهم الضرورية .

٣٠ ـ ويلاحظ ان سكان العراق كانوا مولعين بفطرتهم منذ القديم بالخوض فى المسائل الدينية العويصة ؛ ففى عهد الخلفاء كان الناس يعتنقون المذهب السنى ، اما اليوم فهم يعتنقون المذهب الشيعى . وعلى العموم ، فان العرب ضيعوا وقاتهم الثمينة فى الجدل المضنى والمناقشات التى لا طائل تحتها .

٣١ ـ . . . . . .

٣٢ ـ . . . . . .

٣٣ ـ وفى اثناء تجوالى بين قبائل عربستان كنت احمل معى بعض الفواكه والحلويات لتوزيعها على الاسر العربية التى كانت تقوم بضيافتى ، فكان يحضر بعض الاطفال الصغار ، فتملأ حجرهم بتلك الفواكه والحلويات ، فيأخذونها ويهرعون عائدين الى الجانب المعد لهم فى الخيمة . ولعل من السهل على الانسان ان يدرك السر فى بقاء هؤلاء لاعراب بعيدين عن الرذيلة يتمتعون بحياة صحية مستقيمة ، وذلك لان حياة الجنسين الاجتماعية فى البلاد العربية تكاد تكون متصلة ، فالجانب الذى تشغله النساء من الخيمة يتصل

بالجانب الذى يشغله الرجال ، ولا يوجد بين القسمين فاصل سوى حصير من القصب ، بحيث انى عندما كنت اتكىء على هذا الحصير الفاصل واتبسط مع الرجال فى الحديث عن احوال العالم الخارجى، كنت اسمع النساء وهن يظهرن استغرابهن وسرورهن لما كن يسمعنه منى ؛ فعسى ان يحتفظ العرب فى وسط صحرائهم بطرز حياتهم الطبيعية البسيطة هذه ، ويتمسكوا بتقاليد الرجولة والانوثة بهذا الشكل الذى يعتبر مفخرة للعالم اجمع . ويخيل الى بانه يندر ان نجد بين شعوب الارض من استطاع ان يحتفظ بحالته الصحية كما احتفظ هؤلاء ، حتى سمعت من بعضهم انهم لم يعرفوا مرضا فى الحياة غير مرض واحد وهو مرض الموت .

الفصل الثاني

« الواح الخليقة والطوفان »

٣٤ ـ كنت قد ذكرت فى الفصل الاول من هذا الكتاب انى انفقت وقتا غير قصير فى ارض العراق ادرس فيها عن كثب نهر الفرات دراسة دقيقة مبتدئا من عنه وهيت حتى حدود الخليج الفارسى ، وذلك لاصل الى تعيين البقعة التى كانت فيما مضى مركزا لجنة عدن بحيث يمكن ارواؤهـا ارواء سيحيـا طول ايام السنة ؛ فعثرت على مكانين يتوفر فيهما الشرط المذكور ، احدهما بقعـة الشلالات الواقعـة بين عنه وهيت حيث تقع جنة عدن الساميين (الاكاديين) ، والثانى بقعة الاهوار التى تبدأ قرب خرائب اور الكلدية حيث تقع جنة عدن السومريين . وقد توصلت الى تعيين ذلك بعد تجوال طويل فى تلك المنطقة مسترشدا بالالواح البابلية والخرائط التى تبين مستويات الاراضى هناك ؛ بيد ان الاستاذ سايس يرى خلاف ذلك ، فهو يعتقد بان الجنة كانت تقع فى سهل بابل بدليل ان كلمة « عدن » كانت تطلق فى عرف البابليين على السهل البابلى وانها تعنى فى اللغـة البابليـة السهل . اما الدكتور كينغ التابع للمتحف البريطانى فيذهب الى ان الجنة كانت واقعـة على سـاحل

الخليج الفارسى حيث يقول : « يوجد فى المتحف البريطانى بلندن قطعة حجرية ترجع الى العهد البابلى كانت تحدد مساحة من الارض تقع فى جنة عدن على قناة عدن نفسها . وهذه القطعة الحجرية تنبئنا بان هناك بقعة كانت تسمى عدن وان هذه البقعة تقع على قناة عدن وانها كانت معروفة للناس منذ سنين . وقد كتب على هذه القطعة ان تلك البقعة يحدد احد جهاتها القسم الساحلى من البحر ومعنى هذا انها كانت تقع على رأس الخليج الفارسى » . على أنى لا ازال اعتقد ان المقصود بكلمة « القسم الساحلى من البحر » هو « حدود منطقة الاهوار » ، ويجد القارىء توضيحا لذلك فى الفقرات من ٣٦ الى ٤٣ .

٣٥ ـ والالواح البابلية التى بايدينا اليوم تختص بعصر متأخر نسبيا وقد كتب عليها بعض القصص باللغة البابلية (الاكادية) ، وهذه القصص ترجع الى العصر السومرى الاول . ويستفاد من هذه الالواح ان نهاية حكم الاله (كاوس) كانت على يد مردخ اله البابليين لا على يد (يهوا) اله السومريين .

٣٦ ـ لقد ادرك اولئك الاقدمون تأثير الطبيعة فى الكائنات وعرفوا ان مياه النهر وحدها لا يمكن ان تؤمن سبل الحياة ما لم

تختلط بمياه الاهوار ؛ وهذا ما اثبته الواقع ، فان بذرة الحياة لم تنشأ ولم تنمو فى هذه البقاع الا بعد اختلاط هـذه المياه العذبة بالاهوار ـ ذلك الاختلاط الذى حصل بتأثير عملية المد والجزر. وفى الوقت نفسه يجب ان يلاحظ ان تأثير عملية المد والجزر هذه كان مقصورا على احداث اتصال بين مياه النهر والاهوار ؛ اما مياه الخليج المالحة فلم تكن تصل الى الاهوار بالنظر لوجود دلتا الكارون والكرخة التى كانت تقع بين منطقة الاهوار ومنطقة الخليج فتفصل بينهما . لذا فان تأثير ارتفاع المياه فى حالة المد البالغة نسبته عشرة اقدام والذى يمتد الى مسافة مائة ميل الى الداخل كان ولا يزال يقتصر على احواض الانهر فقط فيرتفع منسوب المياه العذبة فيها دون ان يكون ثمة مجال لدخول مياه البحر المالحة الى الاهوار . وعلى هذا فان كلمة « عمق المياه » الواردة فى الكتابات القديمة والتى تعود الى العصر القصصى كان يقصد بها « عمق المياه العذبة » لا « عمق مياه البحر » .

٣٧ ـ ولعل من المفيد هنا ان ارسم للقارىء صورة مفصلة لوضع مجارى نهرى دجلة والفرات ونهر كارون ونهر كرخة ، وذلك لان توضيح حالة هذه الانهر فى ذلك الوقت أمر ضرورى

لفهم قضية المياه المالحة والمياه العذبة وكثير من الحوادث التاريخية التى ورد ذكرها فى العهد القديم .

٣٨ ـ يدخل نهر دجلة دلتاه فى بلد الواقعة جنوبى مدينة سامراء الحالية ، وهناك توجد آثار لمشروع عظيم يعتبر من أهم مشاريع الرى القديمة ؛ وتقول الروايات القديمة انه كان فى ذلك الوقت رجل جبار يدعى نمرود ، وان هذا الرجل اراد ان يحول مياه دجلة ، فاقام سدا فى وسط مجرى النهر وحول مياهه الى منطقة صلبة من الاراضى ، فأخذت تجرى فى مستويات أعلى من ذى قبل بحيث يؤمن معها ارواء كل تلك المنطقة المرتفعة . وكان ان ظهرت فى وسط المجرى الجديد شلالات أدت الى انحصار الملاحة فى النهر فى القسم الذى يبدأ بمدينة اوبيس ويمر ببغداد ثم بكوت الامارة حيث كان النهر على طول هذه المسافة يجرى فى حوضه الحالى ؛ اما بعد هذا فكان النهر يتبع اتجاه شط الحى او فرع الغراف الحالى ، فيمر بمدينة لاكاش (تلو الحالية) حتى يصل الى اور الكلدية . واما المنطقة الواقعة على مجرى دجلة الحديث والتى تمتد باتجاه العمارة والكرنه ، فقد كانت عبارة عن بحيرة واسعة من المياه العذبة تعرف باسم بحيرة سوزيانا ؛ وهذه التفاصيل التى ذكرناها لمجرى دجلة تؤيدها مستويات الاراضى الواقعة على

طول هذا المجرى ويؤيدها الفرق فى مقطع النهر بين شمالى مدينة الكوت وبين جنوبيها .

٣٩ ـ وكان يلتقى النهران ، دجلة والفرات ، فى اور الكلدية فتجرى مياههما الموحدة من هناك مارة بمدينة الزبير الحالية ثم تتصل بهور عبدالله فى جدول مدخل بوبيان ؛ والخط المرسوم بطول ١٨ قدم على خرائط البحرية البريطانية يبين بجلاء المصب القديم للنهر شمالى مدينة الكويت . ولهور عبدالله هذا صدران ، احدهما عبارة عن ملتقى مياه النهرين (الفرات ودجلة) فى مجراهما القديم ، والثانى عبارة عن مصب نهر كارون القديم .

٤٠ ـ وقد لعب نهر كارون دورا خطيرا فى تكوين الدلتا فى العراق ، فبينما كان نهرا دجلة والفرات يحملان كميات كبيرة من الطمى ويتركانهما فى الاهوار البابلية والكلدية ومنخفضات سوزيانا ، اذ ينهر كارون ينحدر من مرتفعات ايران فيصب مياهه الغزيرة فى الخليج الفارسى او فى ملتقى نهرى دجلة والفرات مباشرة ؛ وبهذا اصبح نهر كارون عاملا مهما فى تكوين الاراضى المرتفعة التى تمتد من البصرة باتجاه الشرق فتحول دون اختلاط

مياه البحر بمياه الاهوار ، وبذلك امكن الاحتفاظ بمياه الاهوار نقية دون ان تختلط بالمياه المالحة . اما الكمية من الطمى التى تحملها مياه شط العرب الى الخليج ، ذلك الطمى الذى يؤلف الحاجز الارضى داخل مياه الخليج ، فيرجع السبب فى تكوينها الى ما تحمله مياه نهر كارون من الطمى ، حيث تتجمع تلك الكمية فى الجهة الشرقية بينما تتجمع كمية الطمى الذى تحمله مياه الفرات ودجلة فى الجهة الغربية فى مكان بعيد ؛ وهكذا نشأ النتوء البارز الذى يفصل بين منطقة الخليج ومنطقة الاهوار . وقد كان لنهرى كارون والكرخة فى الازمنة القديمة منفذ واحد مشترك ، ولكن قبل خمسمائة او ستمائة سنة أخذ نهر الكرخة يشق له منفذا مستقلا من اعالى دلتا كارون ، وبهذا صار يصب مياهه فى اهوار الفرات ودجلة .

٤١ - ويرى الاستاذ سايس ان مياه البحر وان كانت اليوم فى معزل عن مياه الاهوار بحيث لا يمكنها ان تدخل منطقة الاهوار ، الا ان الحالة فى الازمنة القديمة لم تكن بهذا الشكل ، بل ان مياه البحر كانت تدخل وتختلط بمياه الاهوار ؛ وذلك لان الكلمة التى كان يستعملها البابليون للدلالة على البحر كانوا يطلقونها على الاهوار ايضا . ثم ان مدينة ايريدو التى تعتبر ميناء

بحريا للمملكة كانت تقع داخل منطقة الاهوار ؛ اضف الى ذلك ما يقال من ان اول من سكن مدينة ايريدو كان يتعاطى مهنة صيد الاسماك فى البحر و كان يقوم فى كل يوم بتقديم سمكة كبيرة قربانا لآلهته . اما انا فلا اتفق والاستاذ سايس فيما ذهب اليه ، وذلك لان اشتراك البحر والاهوار بالاسم لا يمكن ان يعتبر دليلا اكثر من ان اولئك القدماء ، كأحفادهم عرب اليوم ، كانوا يطلقون على النهر المستديم والبحيرة العذبة والبحر المالح كلمة واحدة مشتركة ؛ وهذا نظير اطلاقهم كلمة صحراء على السهل والجبل بالنظر لان كلا منهما لا تصل اليه المياه فى اوقات الفيضان . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نفسر قصة الطوفان ، كما اننا بهذه الوسيلة نفسها نفهم قصة عبور بنى اسرائيل البحر الاحمر بعد خروجهم من مصر .

ان الظواهر الجغرافية لهذه البلاد كانت منذ اقدم الازمنة حتى اليوم تشير الى ان مياه البحر لا يمكن ان تدخل وتختلط بمياه الاهوار فى اى زمن من الازمان ، وذلك بالنظر لوجود دلتا نهر كارون ، تلك الدلتا التى تؤلف حاجزا يفصل بين منخفضات دلتا نهرى دجلة والفرات وبين البحر ؛ ولهذا فان مياه نهرى دجلة

والفرات كانت مضطرة الى ان تشق لها طريقا من بين هذا الحاجز المرتفع حتى تصل الى البحر (١) .

٤٢ - وبهذا يظهر ان اختلاط ماء البحر بالاهوار لم يكن أمرا ممكن الوقوع فى تلك الازمنة البعيدة ، ومنه يظهر ايضا ان

---

(١) وقد أيد المستر ليشوارد وول فى كتابه « السومريون » نظرية السير ويليم ويلكوكس فى كيفية تكون دلتا الرافدين ، فقال بعد ان نقل نص عبارة العهد القديم (وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة ارضا .... فأخرجت الارض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه . ورأى الله ذلك انه حسن) ان نهر كارون كان يصب فى الخليج قرب مدينة المحمرة الحالية ؛ ثم ان وادى البطن الحالى الواقع فى الجهة المقابلة لمصب كارون كان عبارة عن نهر واسع داخل قلب الجزيرة يصب فى الخليج ايضا امام مصب نهر كارون . وكان هذان النهران يحملان معهما كميات كبيرة من الطمى تعادل الكمية التى يحملها الرافدان معا فيتركانها على شكل اكوام كبيرة عند مصبيهما فى الخليج ؛ ولما كثرت هذه الاكوام فى مصبى النهرين المذكورين التقى بعضهما ببعض فكونت حاجزا ارضيا يقطع الخليج فى وسطه . وهذا الحاجز اوجد فى شمالى الخليج بحيرة على شكل آنية تحوى كل الترسبات التى كان الفرات ودجلة يحملانها اليها ، تلك الترسبات التى كانت قبل وجود هذا الحاجز تذهب ضياعا فى بحر الخليج الواسع . وبعد هذا استحالت هذه البحيرة المالحة الى مياه عذبة ، وبمرور السنين أخذ قاعها بالارتفاع تدريجيا حتى صارت ضحلة ؛ ومن ثم ظهرت فيها الجزر . وبعد ذلك بمدة ظهرت فيها غابات القصب مختلطة بالرمال والاطيان تتخللها اهوار ومستنقعات ؛ وكان نهرا دجلة والفرات يشقان طريقهما فى هذه المنطقة خلال ممرات غير ثابتة ليصبان مياههما فى الخليج . وهنا وجد الجنس البشرى فى هذه المنطقة مجالا للحصول على معيشته دون عناء كبير ، فأخذ يزرع الاراضى التى كانت تظهر فيها بين حين وآخر معتمدا فى ذلك على المياه العذبة .

« المترجمان »

هذا الاختلاط يكاد يكون مستحيلا كلما ابتعدنا عن منطقة الاهوار وصعدنا الى الشمال . ولا يخفى انه كلما قلت المياه التى تؤخذ من دجلة والفرات والكرخة والكارون لاغراض الرى شق على مياه البحر الصعود شمالا والاختلاط بمياه الاهوار ؛ وذلك لان احواض هذه الانهر فى منطقة المصب تبقى مليئة بمياهها العذبة ، فتمنع ماء البحر من الصعود الى الاهوار . قد يقال ان السبب فى عدم اختلاط ماء البحر بمياه الاهوار لا يرجع الى تراكم المياه العذبة الموجودة فى مجرى دجلة والفرات حيث تحول دون صعود ماء البحر ووصوله الى الاهوار كما قد ذكر ، بدليل ان ماء البحر لم يكن يصل منطقة الاهوار فى زمن البابليين ، ايام رخاء العراق ، بالرغم عن ان مياه دجلة والفرات كانت كلها تستهلك لاغراض الرى ؛ لكن الجواب على هذا يسهل اذا علمنا ان مجرى دجلة والفرات الموحد لم يكن خاليا من المياه اذ ذاك وانما كان يتمون من نهرى كارون والكرخة حيث لم تكن مياههما قد استعملت فى ذلك الوقت لاغراض الرى. ومما يجدر بالذكر ان وسائل الرى فى العراق اخذت تنحط بعد ان بدىء بالاستفادة من مياه نهرى كارون والكرخة . نعم ، ربما يمكن فى المستقبل ان يدخل ماء البحر ويختلط بمياه الاهوار ، وذلك فيما لو استغلت كل مياه هذه الانهر الاربعة فى سبيل

اغراض الرى ؛ ولهذا اقترحت انشاء خزانات فى الشمال والجنوب على نهر الفرات وانشاء سد (براج) على الفرات نفسه قرب مدينة البصرة مع قنوات خاصة تأخذ المياه من امام السد لارواء بساتين النخيل فى منطقة البصرة ، كل ذلك تلافيا لما يمكن ان يقع فى المستقبل . ويغلب على الظن ان منطقة الاهوار العذبة هذه التى تتحدث عنها كانت فى الازمنة القديمة التى تتصل ببدء الخليقة واسعة تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين ونصف مليون ايكر[1] بدلا من مليونين وثلاثة ارباع المليون ايكر كما هى عليه الآن .

٤٣ ـ اما ما يقال من ان مدينة ايريدو كانت تعتبر ميناء بحريا لهذه المملكة وكانت تقع فى منطقة الاهوار ، فليس فى هذا ما يغير من نظريتنا السابقة شيئا بدليل ان البصرة اليوم تعتبر ميناء للعراق وهى تبعد عن البحر ستين ميلا وتصل اليها السفن البحرية التى تحتاج الى عمق يتراوح بين ١٦ و١٨ قدما من الماء ، ومع ذلك فالمياه التى امامها عذبة وهى تستعمل لارواء ملايين النخيل هناك . واما ما يقال من ان اول من سكن مدينة ايريدو الواقعة على ملتقى الانهر كان يصيد سمكة كبيرة فى كل يوم فلا دلالة فيه على انها كانت واقعة على البحر ، بل ربما يستدل بهذا على ان تلك المدينة

(١) الايكر يساوى ٤٠٤٨ مترا مربعا .

كانت واقعة على المياه العذبة كما ذهبنا اليه ، حيث جرت العادة بان تتوفر الاسماك الكبيرة فى ملتقى الانهر كما هى الحال اليوم فى ملتقى نهرى دجلة والفرات وفى ملتقى دجلة وديالى .

٤٤ ـ ويلاحظ ان اطلال اقدم مدن العراق تقع قرب ملتقى الفرات بمجرى دجلة القديم فى اور الكلدية . ويرجع السبب فى اختيار تلك المنطقة الى ان المياه التى تصل اليها كانت قد فقدت المواد الغرينية فى المسافات الشاسعة التى انتشرت فيها ؛ فكان فى وسع السكان والحالة هذه ان يعتمدوا على المواد الكيمياوية الموجودة فى تلك المياه ويستعملونها فى اغراض الرى ، لانهم لم يكونوا من الكثرة فى العدد بحيث يستطيعون معها استعمال المياه ذات الطمى الكثير بالنظر لما تتطلبه من أياد عاملة لكرى وتطهير الانهر . لكن بعد ان كثر عدد السكان بحيث يستطيعون معه القيام بالاعمال التطهيرية اللازمة ، اتجهوا الى الاقسام العالية من النهر واستخدموا المياه الغرينية وأسسوا هناك مدنا جديدة .

٤٥ ـ والخلاصة ، ان اقدم موطن للجنس البشرى انما كان فى منطقة المياه العذبة الواقعة بين دلتا دجلة والفرات وبين دلتا نهرى كارون والكرخة . وقد كان الفرات ودجلة يجريان فى هذه

المنطقة بهدوء وعندما يصلان الى البقعة المرتفعة التى كونتها ترسبات نهرى كارون والكرخة ، والتى كانت تفصل بين منطقة الاهوار وبين منطقة البحر ، يشقان لهما قناة ضيقة عميقة ويصبان فى البحر . وهنا يجدر بى ان اضع امام القارىء بعض منتخبات من قصة الخليقة وقصص شعرية اخرى نقلها الدكتور و. ل. كينغ فى كتابه « الالواح السبعة للخليقة » للمقارنة بينها وبين ما ذكرته عن هذه المنطقة :ـ

١ ـ « لم تكن سماء فوقنا ،

٢ ـ ولم تكن ارض تحتنا ،

٣ ـ لكن الآله القديم ابسو خلقهما ،

٤ ـ وكانت الآلهة كاوس (تيامات) اما للسماء والارض ،

٥ ـ ثم امتزجت مياههما بعضها ببعض ،

٦ ـ لم تكن هناك حقول ولا اهوار ؛

٧ ـ حيث لم يكن بعد فى الوجود احد من الآلهة » .

. . . . . .

٨ ـ « انت ايها النهر خلقت لنا جميع الاشياء ،

٩ ـ لما انشأتك الآلهة العظام ،

١٠ ـ انها البست ضفافك حلة الرخاء ،

١١ ـ اختار ايا (ملك العمق) بيته فى وسطك ، .

. . . . . .

١٢ ـ . اما بيت الآلهة المقدس ، فلم يكن بعد قد بنى فى الارض المقدسة ؛

١٣ ـ اذ لم ينبت القصب ، ولم تنبت الاشجار .

١٤ ـ لم يكن هناك عمق ، ولم تبنى مدينة ايريدو ؛

١٥ ـ كانت الارض كلها بحر ،

١٦ ـ اذ ذاك تحرك البحر .

١٧ ـ فبنيت مدينة ايريدو واى ساجل ،

١٨ ـ واتخذ الآله لوجال دول ازاجا مدينة اى ساجل الواقعة فى وسط العمق مسكنا له .

١٩ ـ ثم وضع مردوخ القصب على وجه الماء ،

٢٠ ـ ونثر التراب على جوانب ذلك القصب ،

٢١ ـ لكى يهىء للآلهة المساكن التى تهواها افئدتهم ، .

٤٦ ـ اما كلمة « أبسو » الواردة فى البيت الثالث فهى ترادف كلمة « عمق » الواردة فى الابيات (١١ و١٤ و١٨) ، ويراد

بها هنا المساحات الواسعة من الاراضى المغمورة بالمياه العذبة التى يصل اليها تأثير المد البالغ ارتفاعه عشرة اقدام ؛ وبهذا يظهر ان « العمق » الذى اشار اليه السومريون فى الواحهم انما هو عمق المياه العذبة . واما كلمة « تيامات » (وبلغة عرب الاهوار تهومات) التى جعلت اسما للمبدع الاول الذى اوجد الكائنات ، حسب ما ورد فى البيت الرابع ، فانما يراد بها النهر الذى ورد ذكره فى البيت الثامن ، وهو الذى قيل انه الموجد لجميع الاشياء . ثم ان الابيات (٤ و٩ و١٠) وضحت كيف صار النهر الذى كان يرمز به الى الآله (كاوس) فى بادىء الامر مصدرا للرخاء ، وذلك بعد ان سيطرت عليه الآلهة ووحدت مجاريه فى قناة واحدة . والابيات (١١ و١٦ و١٧ و١٨) تبين ان الحياة انما ظهرت اول مرة فى وسط تلك الاهوار العذبة ، حيث نما القصب فى تلك المستنقعات (بيتا ٦ و١٣) فبنيت اول مدينة واول معبد وهما ايريدو ومعبدها القديم . واخيرا نرى فى الابيات (١٩ و٢٠ و٢١) وصفا موجزا لعملية احياء الاراضى التى بدىء بها فى تلك المنخفضات ، وذلك باستخدام القصب والتراب لانشاء ضفاف حول مساحات معينة من الاراضى المغطاة بالمياه ثم زرعها بعد جفافها بطريقة الرى

السيحى ؛ ففى داخل هذه الاراضى المسيحة اقيمت معابد الآلهة ومساكنهم .

٤٧ ـ ثم بعد ان مرت بضعة آلاف من السنين نرى الفرات ، وقد غير مجراه القديم فى القسم الادنى منه فى تلك المنطقة فى مسافة تبلغ ٧٠ ميلا فى الطول ، يرجع مرة اخرى فيغطى السهول ويخترق منطقة الاهوار الواسعة ويغمر مساحة طولها سبعون ميلا وعرضها اثنى عشر ميلا فى عمق قدمين او ثلاثة اقدام . وقد شاهدت العرب وهم يستخدمون القصب والتراب فى اقامة السدود ايام الصيهود فيسيجون قطعا من ارض الاهوار بتلك السداد ، وذلك لاعدادها لسكناهم وزراعتهم وجعلها فى مأمن من خطر الفيضان ؛ ولا غرابة فى ذلك فالارض لم تزل تلك الارض والمياه تلك المياه .

٤٨ ـ ومما يلفت النظر ان اسماء الآلهة والمعابد البابلية القديمة تبدأ عادة بحرف « اى » ، ومن المؤكد ان هذا الحرف نفسه هو ما يستعمل اليوم فى اللغة العربية اداة للنداء عندما يضاف الى احد اسماء الجلالة البالغ عددها تسعة وتسعون اسما ، فيقال : يا ستار ، يا كريم ، الخ .... ثم ان الآله (ايا) الذى يعبر عنه

بكلمة « يهوا » يرادف كلمة « جيهوفة » بالانكليزية ، كما ان كلمة « تيامات » التى حرفت فصارت « تيهومات » ترادف كلمة « تيهوم » العبرية الدالة على معنى العمق . وقد جرت عادة القبائل العربية الساكنة فى منطقة الاهوار انهم عندما يبدأون بالهجوم يتكتلون بشكل حلقة فيدورون وبايديهم البنادق وهم يضربون الارض بارجلهم وينادون « تيهام » « تيهام » بحيث يكون الحرف الاول ظاهرا . وفى مثل هذه الحالات لا يرتدى المتحاربون لباسا عدا المئزر الذى يستر الحقوين ؛ ولقد شاهدت مرة زوجة احد زعماء القبائل ، وكانت ترتدى ثوبا شفافا ، وهى تجول بين الجماعات المتحاربة تحرض هذا وتدفع ذاك الى المعركة . واللغة البابلية تشبه اللغة المصرية من حيث تبديل الاحرف عند التلفظ ، فكما ان فى اللغة المصرية تبدل الكاف جيما فيقال « الجلب الجبير » بدلا من « الكلب الكبير » ، كذلك يقال « مردوج » بدلا من « مردوك » كما يقال « اباسو » بدلا من « أبسو » فى اللغة البابلية .

٤٩ ـ وقد استوطن السومريون الذين هم اقدم سكان العراق السهل الذى تصل اليه المياه طول ايام السنة ، فأقاموا هناك من السدود المحكمة ما يحميهم من خطر الفيضانات التى لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة اقدام . وكانوا يشيدون مدنهم ومعابدهم فى

الاماكن التى يأمنون فيها شر الوحوش الضارية ، وحيث يحمون انفسهم من عدوان عرب الصحراء الذين كانوا يشنون عليهم الغارة بين حين وآخر ؛ وكانوا يتعاطون مهنة الزراعة ويروون اراضيهم باحداث فتحات فى السدود حتى تصل اليهم المياه السيحية . وهناك فى تلك الاهوار الواسعة المظلمة المحيطة بهم تمثل لهم خيال تهومات ، المخيف الذى ورد ذكره فى اللوح الاول من الواح الخليقة . لقد كانت كلاب البحر التى تأتى من الخليج الفارسى فتصعد فى نهر دجلة وتسير حتى تصل الى مدينة سامراء مصدر رعب للذين يخوضون نهر دجلة فى ذلك الوقت كما هو الحال الآن ؛ اما الحيوانات التى نعتها المترجمون بانها كلاب صيد متهيجة واكباش فاغلب الظن انها كانت اسودا وخنازير وحشية ، حيث كانت الاسود مألوفة فى القسم الجنوبى من بابل وذلك قبل ان يتعاطى العرب الاسلحة النارية ؛ واما الخنازير فلا تزال موجودة فى هذه المناطق بكثرة حتى يومنا هذا . وهناك اسطورة شائعة قد تكون قريبة من الواقع وهى ان جنة عدن السومرية ومدينة اريدو ومعبدها (يهاساجل) كانت تقع فى القرنة فى نقطة ملتقى دجلة بالفرات سابقا ، وهى موقع ملتقى النهرين قبل ان يتحول الى الملتقى الحالى فى كرمة على ؛ الا انى مع ذلك لا ازال

اميل الى الاعتقاد بانها تقع فى البقعة الكائنة فى شمالى مدينة اور فى الملتقى القديم لنهرى الفرات ودجلة .

٥٠ ـ . فى ايريدو نما عنب اسود غرس فى مكان جميل ، محاط بالانهر حيث يلتقى النهران .

وتقع مدينة ايريدو فى القسم الجنوبى من الفرات فى المنطقة التى انشئت فيها جنة عدن السومرية ، ويمتاز هذا القسم من العراق بطيب المناخ وجودة التربة وله فى تاريخ العالم القديم ذكريات جميلة ؛ فقد استوطن فيه اول مرة آدم ابو البشر واقام هناك فى تلك الربوع يتمتع بلذة الحياة ونعمة الخلود . وكانت الى جنبه زوجه حواء أم البشر ، وكانت البقعة التى يعيشان فيها تحوى صنوف الاشجار والنباتات وانواع الفواكه المختلفة ، وقد ابيح لهما تناول كل ما يشتهيانه عدا شجر الكروم الذى كان رحيقا ، خاصا ، بالآلهة ، فانه حرم عليهما ؛ لكن غريزة حب الاستطلاع هى التى دفعتهما الى تناول ثمرة ذلك الشجر ، وكان ان طرد آدم وزوجه من الجنة فخرجوا منها وخسروا ذلك النعيم الابدى . والغريب ان العرب لما دخلوا العراق فى القرون الوسطى ايام الفتح انشأوا فى هذا المكان نفسه احدى جنائنهم الاربع (والثلاث الباقية هى :

دمشق وسمرقند وشيراز) ، تلك الجنائن التى حازت شهرة واسعة فى العالم . اما اليوم فيرى السائح فى هذه المنطقة سلسلة خضراء من نبات البرسيم تتخللها شبكة من النخيل والكروم حيث تحمى الارض بظلها الكثيف ايام الشتاء القار وفى ايام الصيف المحرق .

٥١ ـ لكن سرعان ما انتقل العمران من مدينة ايريدو الى مدينة بابل ، حيث كان النهر الذى بنيت عليه مدينة ايريدو وهو نهر الكوشين (نهر كوثى القديم) المتفرع من نهر الفرات قد اخذت تعلو ضفتاه ، وذلك بسبب كميات الطمى التى كانت تحملها المياه . وقد صادف ، فى احد الفيضانات العالية ، ان شق النهر له مجرى جديدا فى الاقسام العالية منه وانحدر الى السهول الواسعة المنخفضة الواقعة فى الدلتا ؛ وبنتيجة ذلك جف النهر القديم كما جف نهر النيل ايضا ، واذ ذاك اصبح من المتعذر ارجاع المياه اليهما بدون اجراء اعمال تطهيرية ؛ وكان على نيفور وارخ ولارسا ان تأخذ مياهها من فرع آخر يستمد مياهه من مجرى الفرات البابلى الجديد ، كما ان مدينتا سورياك وايريدو اصبحتا مغمورتين بالمياه بالنظر لانخفاض اراضيهما . وبالرغم من ان الفرات حول مجراه فانه اصبح مرة اخرى يجرى فى اهوار واسعة كالتى كان فيها من قبل ، واخذ الناس يقيمون فى منطقة الاهوار الجديدة سدودا

محكمة ، وذلك لكى يؤسسوا داخل هذه السدود مدينة جديدة ومعبد جديد . وبهذه الكيفية انشئت مدينة بابل واصبحت مركزا لمقاطعة غنية جديدة ، ونقل اليها « يهاساجل » وهو المعبدالمقدس للشعب السومرى فجعل علما لمعبد مردوخ الواقع فى مدينة بابل ؛ ثم امتلك الاكاديون اراضى سومر .

٥٢ ـ والانسان عندما يتجول اليوم فى الاراضى الواقعة على ضفاف نهر الهندية الحالى (بالاكوباس القديم) الذى اصبح الآن المجرى الرئيسى لمياه الفرات تقريبا يرى العرب هناك وهم يقومون فى كل سنة باحتفالات شعبية لتخليد ذكرى بعض الوقائع التاريخية التى مرت بهذه البلاد فى الازمنة القديمة ، كذكرى واقعة الجمل وذكرى واقعة الطف ، فى حين ان تلك الوقائع التاريخية لم تحدث فى هذه الاماكن بالذات وانما نقلت ذكراها الى الاماكن التى نزح اليها المحتفلون . وهذا يشبه ما جرى لمعبد « يهاساجل » حين تحول من مدينة ايريدو الى مدينة بابل بعد ان تغير مجرى النهر ونزح سكان نهر كوثى الى نهر بابل ، حيث كان على مدينة ايريدو ان تقنع فى ايام بؤسها بمعبد « يه ابسو » (العمق) حتى لقيت حتفها .

٥٣ ـ وقد رسمت تقلبات مجارى الانهر وتأثيراتها صورا مختلفة فى نفوس اولئك الاقدمين ، فقد كان النهر (تهومات) فى بدء الامر عنصرا خطرا وكان يجلب للناس الخراب والدمار ويقضى على كل الاشياء ؛ ثم بعد ذلك اخذ يمثل الحياة والرخاء حين تم التغلب على مياهه واستخدمت هذه المياه لاغراض الرى والعمران ، فظهرت تلك الجنائن السومرية الجميلة والحدائق الغناء . لقد رجع السومريون يتأملون احوال الماضى فتخيلوا الآله (كاوس) الذى يمثل بدء واصل الاشياء ، وهو ذو السلطة المطلقة ، كرمز الفيضانات المدمرة ؛ ثم تخيلوا بين هذين الآلهين آلهة اخرى مخيفة ولكنها كانت اقل هولا منهما . ومن اتحاد (تهومات) بالآله (ابسو) ولد لحمو ولحامو ، وبمرور الاجيال ظهر انسار وكيسار واستمرت الايام فظهرت آلهة شريرة ؛ ثم بعد مرور وقت طويل ظهرت آلهة الخير ، وكانت كل طبقة متأخرة من هذه الآلهة احسن من سابقتها ، حتى ظهر الآله (يهوا) الذى حل محله الآله مردوخ آله البابليين الاكبر .

٥٤ ـ لقد كان العلامة داروين جريئا حين فاجأ العالم بنظريته الشهيرة القائلة بان هناك فى جسم الانسان من الدلائل ما يبرهن على ضعة الاصل الذى انحدر منه ؛ ولكن يظهر ان اولئك

القدماء كانوا اكثر جرأة منه ، فانهم ذهبوا الى ان كل ما فى العالم سواء أكان سماويا او ارضيا فانه يحمل من الشواهد ما يدل على ضعة اصله .

٥٥ ـ وتذهب الاساطير القديمة الى ان ابسو (آله البحيرة العذبة) تضرع الى تهومات (الآله المطلق الذى يمثل الفيضان الدائم) وطلب منه ان يساعده على تحطيم الاعمال العمرانية التى انشأها الآله (مردوخ) حيث كان هذا منهمكا بتنظيم العوالم ؛ وكان ان اجاب (تهومات) ما اراده (ابسو) ، فحطم العوالم ودمر كل ما فى الوجود ، وحرم الناس الهدوء والراحة حتى ان الآله (كاوس) اصابه من هذا القلق شيء كثير . بهذا تبدأ قصة الخليقة التى تبين كيف سيطر الآله (يهوا) والآلهة القدماء على (ابسو) وعلى الاهوار ، وكيف تمكن مردوخ من التغلب على (تهومات) ، وذلك بانشاء شبكة من القنوات والسدود فمزق جسم (تهومات) وصيره قطعتين وسيطر على الامطار السماوية والفيضانات الارضية ؛ ويعرف مردوخ هذا لدى العرب بأسم نمرود وقد كان نموذجا للبطولة فى العالم العربى ، وكان يعتبر لدى السومريين مخترع النبال والحبر الاعظم للآلهة .

والمعتقد ان هؤلاء القدماء كانوا يرون ان المخلوقات التى وجدت فى العالم انما ظهرت على شكل دفعات متدرجة بعضها أرقى من بعض ، وان الطبقة المتأخرة فى الوجود تكون أرقى من سابقتها ؛ وعلى هذا الاساس قرروا ان النهار انما اخذ من الليل ، لانه المع واقوى منه ؛ ولما كانوا يعتقدون بان الانسان انما خلق بعد آلهة الخير مع انه دونها فى المرتبة العقلية ، لذلك ذكروا عدة اسباب لتعليل هذه الشذوذ . وقد رسموا فى قصائدهم الشعرية التى تركوها صورا حية للفيضانات التى سحقت الجيل البشرى الذى كان يسكن مدينة (سورياك) الواقعة على الفرات ، ويظهر انهم واجهوا الفيضانات المخيفة بنفس الشجاعة التى واجهوا بها المشاكل التى اصطدمت بهم فى الحياة .

٥٦ ـ ومن المحقق ان ابراهيم الخليل الذى انفق وقتا غير قصير من حياته فى اور الكلدية كان يعرف هذه الاساطير السومرية التى تتعلق بالخليقة والطوفان ، كما ان النبى موسى الذى مكث بين الميديانيين مدة اربعين سنة لابد وانه زار اور وسمع اخبار السومريين وقرأ اساطيرهم فى كتبهم ، وذلك لان الخيام الميديانية كانت تمتد من خليج العقبة الى جنوب دلتا الفرات .

٥٧ ـ وهنـاك عـدة تراجـم للقصص البابليـة التى تتعلق بالطوفان غير انى لاحظت وانا فى العراق ان ترجمة الدكتور بينج اكثر انطباقا على ظواهر البلاد الطبيعيـة من اى ترجمة اخرى ، ولذلك اقتبس هنا عدة قطع منها :ـ

اقترب اليوم الموعود ،

فى المساء ارسلت الآلهة مطرا غزيرا .

لقد خشيت فجر ذلك النهار ،

وخفت ان أرى ذلك اليوم .

دخلت الفلك واوصدت دونى الباب .

هبت العاصفة شديدة عالية ،

غطى الماء وجه الصحارى ،

لم يكد يرى المرء صاحبه .

صرخت استار صراخ امرأة جاءها المخاض ،

ناحت ملكة الآلهة وبكت بصوت عال :

« استحال الجنس الاول الى طين » .

عصفت الزوبعة ستة ايام سويا ، ثم هدأت فى اليوم السابع ؛

ظهر امامى قصب الاهوار كقضبان السياج ؛

رأيت تلك البقعة الممتدة على ساحل البحر ؛

وقد غطتها اثنتا عشرة عقدة من الماء .

فاتجهت السفينة الى صحراء نصير ؛

لكن صحراء نصير لم تسمح لها بالمرور .

٥٨ ـ ويلاحظ انى وضعت كلمة صحراء بدلا من تل او جبل وذلك لانه لا وجود للتل او الجبل فى ارض بابل ، وقد ذكرت الاسباب الداعية لذلك فى الفصل الاول من هذا الكتاب ؛ ثم انى استبدلت ايضا كلمة (ايا) بكلمة (يهوا) حيث لم يسبق لاحد قبل ان عبد (ايا) .

٥٩ ـ وفيما يلى نص ترجمة الدكتور ر. و. روجرز احد اساتذة قسم الدراسات اللاهوتية التابع لدرو وقد ادرجتها هنا بالنظر لما فيها من روح وقوة :ـ

٦٠ ـ . اقترب الوقت الموعود ،

فى المساء ارسلت الآلهة مطرا غزيرا .

لقد خشيت فجر ذلك النهار ،

وخفت انِ أرى ذلك اليوم .

دخلت الفلك واوصدت دونى الباب » .

. . . . . .

« هبت العاصفة شديدة عالية ، فطغى الماء وغطى وجه الصحراء[١] ،

انها اداة تخريب كنسوا بها البشر ،

لم يكد يرى المرء صاحبه ،

لقد انكرت السماء الجنس البشرى .

خشيت الآلهة الطوفان ،

تراجعت ، وتسلقت سماء آنو .

ربضت الآلهة كالكلب وانحنت بجانب الجدار .

بكت اشتار بكاء المرأة وهى فى المخاض ،

ناحت ملكة الآلهة وهى تبكى بصوت عال :

(استحالت العناية الاولى الى طين) » .

. . . . . .

---

(١) راجع الفقرة (٥٨) .

٦١ ـ . هبت العاصفة ثم جاء الطوفان وغطى وجه الارض .

وفى اليوم السابع ، هدأت العاصفة ؛ وتوقف الطوفان بعد ان حارب حرب الجيوش .

فهدأ البحر ، وسكتت العاصفة ، ثم توقف الطوفان .

نظرت البحر ، وانا ارفع صوتى بالعويل .

استحال الجنس البشرى الى طين .

وغدت الحقول كالاهوار .

فتحت النافذة فارتسم النور على وجهى ،

سجدت ، ثم جلست أبكى ،

بكيت حتى سالت دموعى على خدى .

نظرت الى الارض ، فكانت كلها مغمورة بالماء .

لكن بعد ان مضى اثنا عشر يوما لاح لى وجه الارض .

فاتجهت السفينة الى صحراء[1] نصير ،

لكن صحراء نصير اوقفتها هناك ، .

. . . . . .

---

(١) راجع الفقرة (٥٨) .

٦٢ - ولما دنا اليوم السابع ،

أرسلت حمامة وتركتها تذهب ،

طارت الحمامة هنا وهناك ،

لكنها رجعت حيث لم تجد لها مكانا تجثم فيه ،

أرسلت عصفورة وتركتها تذهب ،

طارت العصفورة هنا وهناك ،

لكنها رجعت حيث لم تجد لها مكانا تجثم فيه .

أرسلت غرابا وتركتها تذهب ،

طارت الغراب ، فرأت انحسار الماء ،

اقتربت من الارض ، خاضت (؟) ، نعقت ، ولم ترجع .

٦٣ - ثم اطلقت كل شيء صوب الجهات الاربع ، وقدمت القرابين ،

سكبت الدم على الاكمة الصحراوية .

قدمت اطباق القرابين سبعا سبعا ،

جمعت تحتهما اكوام القصب وخشب الارز والآس .

فتنسمت الآلهة الرائحة ،

تنسمت الرائحة الزكية ،

اجتمعت الآلهة كالذباب حول من قدم القرابين .

ولما دنت سيدة الآلهة ،

رفعت الجواهر الغالية التى صنعها (أنو) وفقا لرغبتها .

(سوف لا أنسى هـــذه الايام التى طوقت فيهـا عنقى بالمجوهرات .

سأفكر فى هذه الايام وسوف لا انساها .

لتأت الآلهة الى القرابين ،

اما بيل فلا يأتى الى القرابين ،

لانه استبد برأيه ، فأرسل الطوفان ،

وسلم بذلك شعبى الى الفناء) » .

. . . . . .

٦٤ - تنحنح ايا ، وتكلم بمل، فيه ،

تحدث الى المحارب بيل ،

انت ايها المحارب بيل ، انت الناطق باسم الآلهة ،

لقد ارسلت الطوفان ، حيث لم يكن ثمة من يخلص لك النصيحة .

يكتب على جبين المجرم جرمه ،

يكتب على المعتدى اثم عدوانه .

كف ، لا تدع الخراب يعم العالم ، ولا تدع البرىء يكون..

٦٥ ـ لا خلاف فى ان طوفان نوح الذى ورد ذكره فى العهد القديم هو نفس الطوفان الذى اشارت اليه هذه القصص السومرية ، كما انه لا خلاف فى ان البقعة التى وقعت فيها تلك الكارثة هى القسم المنخفض من دلتا الفرات ودجلة الواقع شمالى مدينة اور الكلدية ؛ اما فيما يتعلق بموقع جنة عدن الساميين الوارد ذكرها فى العهد القديم وبموقع جنة عدن السومريين التى ورد ذكرها فى قصة الخليقة فهناك مجال واسع للاختلاف ، غير انى لا اشك فى ان جنة عدن السومرية كانت تقع فى الملتقى القديم لدجلة والفرات ، اى فى منطقة الاهوار شمالى اور الكلدية ، كما سبق ان اشار الى ذلك الاستاذ هايس والدكتور كينغ التابع للمتحف البريطانى الذى عثر على قطعة من الحجر تحدد مساحة من الارض تقع فى جنة عدن على قناة عدن نفسها ، فهذه القطعة

الحجرية تبين بان منطقة الاهوار والبحيرات كانت تحد هـذه المساحة فى الجهة الشرقية .

٦٦ ـ اما تعيين موقع جنة عدن الوارد ذكرهـا فى العهد القديم فأمر يحتاج الى جهد وتعب ، وذلك لان هناك مجالا واسعا للنقد ؛ فالاستاذ سايس يرى انها كانت تقع فى ملتقى دجلة بالفرات ايضا حيث كان نهر الكرخة وكارون يصبان فى المجرى الذى يتكون من مياه دجلة والفرات فى جنوب الملتقى . غير اننا لا نستطيع التسليم بهذه النظرية ، وذلك لان الشعوب السامية التى كانت منذ القديم قد استوطنت هذه الجنة (مهد الساميين الاول) قامت بهجرة من الشمال الغربى متجهة نحو جنوب الفرات حيث وقفت ملائكة السيرافيم فى طريقها لمنعها من الرجوع الى الجنة ؛ فلابد ، والحالة هذه ، ان تكون المنطقـة التى هاجر منهـا اولئك الاقوام انما كانت تقع فى الاقسام العالية من الفرات فى شمالى الملتقى القديم لنهرى الفرات ودجلة . ثم ان العهد القديم نص على ان النهر كان يخترق الجنة ثم يتفرع الى اربعة فروع ، وهذا يستلزم ان تكون الجنة فى مكان أعلى من هـذه الفروع الاربعة (فيشون وجيحون وحداقل والفرات) . واذا بحثنا فى هذه المنطقة لم نجد هناك مكانا وراء هذه الفروع الاربعة يصلح لان

يكون مركزا للجنة سوى البقعة الواقعة بين عنه وهيت كما أشرت الى ذلك فى الفصل الاول .

٦٧ - ويقينى انه سيأتى اليوم الذى نرى فيه هـذه الجنة تعود الى الوجود مرة اخرى ونرى هذه الارض وهى تتمتع بشهرتها التاريخية الواسعة وصيتها القديم ، وذلك فيما لو قامت الحكومة بانجاز كافة المشاريع التى اقترحتها لاحياء هذه البلاد . والذى أراه بوجه عام هو ان يؤخذ بنظام الرى الدائم الخاضع للقواعد الفنية الحديثة ، وهذا امر يختلف كل الاختلاف عن نظام الرى القديم الذى ساد فى الاقسام العليا من دلتا العراق ، حيث كان يستخدم عشرات الآلاف من الاسرى الذين يؤتى بهم قسرا فيرغمون على ان يقضوا العمر هناك فى تطهير الجداول من ترسبات الفيضانات والقيام بالاعمال الشاقة ، تلك الاعمال التى كان يئن من جرائها اولئك الاسرى البؤساء فيجلسون على حافة الانهار ويذرفون دموعهم هناك . وهذا النوع من نظام الرى الدائم الذى اقترحه لا يقتصر اثره على احياء المنطقة الشمالية من العراق فحسب، وانما هو كفيل باعادة تلك الايام الذهبية الزاهرة لاولئك الاقوام السومريين الذين كانوا يسكنون وسط منطقة الاهوار حيث كانت الترسبات معدومة نسبيا وحيث انشأوا لانفسهم جنائن عدن ، تلك

الجنائن التى بقيت ذكرياتها عالقة بالاذهان حتى يومنا هـــذا . هناك تقف على ضفاف نهر الفرات فتستعيد ذكرياته القديمة وتدرك مغزى تلك الكلمات المؤثرة التى فاه بها اولئك السومريون القدماء حيث قالوا :ـ

« انت ايها النهر جلبت الينا كل شيء ،

لقد حفرتك الآلهة العظام ،

فالبست ضفافك حلة الرخاء » .

٦٨ ـ واود قبل ان اختم هـــذا الفصل ان اذكر مجمل ما حدث فى العصر البابلى الاخير من الوقائع الهامة ، تلك الوقائع التى تركت انطباعا قويا فى نفسى خلال اقامتى فى بلاد العراق مدة ثلاث سنين . فاول شيء لاحظته هناك هو ان جميع الملوك القدماء الذين قاموا باعمال عظيمة تركوا لهم آثارا فى الجداول والقنوات التى انشأوها ، وهذه الآثار هى التى خلدت ذكرهم على مر الايام ، وكانوا يطلقون على تلك القنوات اسماء غريبة كالقناطر الخيرية مثلا وهو الاسم الذى يطلقه المصريون اليوم على اول سد انشيء على نهر النيل .

٦٩ ـ ثم بعد ان زادت كمية المياه التى تؤخذ من النهر لارواء الاراضى صرنا نسمع بالخزانات التى تدخر فيها المياه لاغراض الرى المستديم ، وعلى الاخص لتجهيز القنوات التى كانت لها أهمية كبيرة فى ذلك الوقت مثل قناة اراكتو التى كانت تمر بمدينة سيبارا فتسقى بابل ؛ وعدا ذلك فقد انشئت منافذ واسعة تتصل بالصحارى لتخفيف وطأة فيضانات الفرات العالية . اما على نهر دجلة فلم تكن هناك منافذ مثل التى انشئت على الفرات ، الامر الذى عرض البلاد لخطر دائم .

٧٠ ـ وقد استخدم كورش الكبير جيوشه فى شق كثير من القنوات من نهر جندس (نهر ديالى الحالى) الذى يلتقى بدجلة قرب مدينة بغداد ، ولا يزال بعض تلك القنوات يستعمل حتى اليوم ، فجدول خراسان الحالى هو احد تلك القنوات التى حفرت فى ذلك الزمن ؛ ويحتمل جدا ان افراد الجيش الذين جىء بهم من منطقة ايران البعيدة هم الذين قاموا بحفر هذا النهر .

٧١ ـ اما المؤرخ اليونانى الشهير هيرودوتس فقد اعطانا صورة جذابة لامعة لحالة العراق فى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، ويظهر ان الواردات الهائلة التى كان يجمعها ملوك الفرس من ارض

العراق وغلاتها الكثيرة ومدنها الغنية العديدة تركت انطباعات جميلة فى نفسه . لقد قمت اثناء زيارتى العراق برحلة استغرقت مسافة عشرة اميال متبعا آثار نهر اراكتو القديم ، فوجدت آثار الخزف المحطم المنتشر على طول الطريق مما يدل على كثافة السكان الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة .

٧٢ - وبعد مضى حوالى الخمسين سنة على هيرودوتس زار المؤرخ زينوفون الذى كان احد حوارى الفيلسوف سقراط هذه البلاد فرسم لنا صورة دقيقة لاحوالها كما رآها هو بعينه : وقد تتبعت اثناء رحلتى الطريق الذى سلكه زينوفون فى الدلتا فى ضوء كتاباته مبتدئا من « ابواب بابل » حتى نهاية مدينة اوبيس ، فظهر لى ان جيش كورش الصغير دخل الدلتا من « ابواب بابل » قرب هيت ثم عبر وادى الصقلاوية على السد الترابى العظيم الذى كان يمتد فى الصحراء ، ذلك السد الذى كان يحصر مياه الفرات ضمن مجرى وادى النهر نفسه . وكان كورش الذى جاء لمحاربة اخيه ارتاكسركس يتوقع ان يقوم اخوه بازالة ذلك السد ليحول بينه وبين اخيه ويصبح حاجزا طبيعيا يمنعه عنه ، سيما بعد ان علم كورش ان اخاه قام بتطهير صدر النهر لتسهيل جرى المياه فيه بعد فتحه ؛ ولذا فقد بادر كورش الى السد فعبره قبل ان يتمكن اخوه من

تخريبه ، ودخل المنطقة الصحراوية الواقعة بين الفلوجة وبغداد والبالغة مساحتها ١١٠ اميال مربعة ؛ ثم بعد ذلك اصطدم بجيوش ارتاكسركس التى تقدمت فى ذلك السهل تحت ظل كثيف من الغبار يشبه السحاب الابيض فى لونه . وقد شاهد زينوفون اول الجداول الاربعة التى عرفت فى عهد الخلفاء العباسيين باسم عيسى وصرصر وملك وكوثا والتى كانت تستمد مياهها من نهر الفرات فى جنوب هذا السهل الصحراوى ؛ وكان الجدول الاول قد شق له طريقا عميقا فى الصحراء ، ويظهر ان زينوفون لم ير غير هذا الجدول ، اما باقى الجداول فقد وصفها اعتمادا على ما سمعه من غيره ، ولذلك جاءت معلوماته غير مضبوطة ؛ وهذا ما يدعونا الى الا نأخذ اقواله على علاتها وانما ننظر اليها بحذر ، فمثلا غير صحيح ما ذكره من ان تلك الجداول الاربعة كانت كلها باتساع واحد وان المسافات بينها متساوية وانها كانت تأخذ مياهها من نهر دجلة فتصب فى الفرات ، وذلك لان نهر الفرات فى هذه البقعة يعلو على نهر دجلة بمقدار ٢٥ قدما .

ان معركة كوناكسا التى وقعت بين الجيشين لا يمكن ان تكون قد حصلت فى جنوب المنطقة الصحراوية السهلة ، وذلك لان هذه المنطقة كانت تتخللها شبكة من القنوات والمجارى العميقة

التى لا تحصى ؛ وعدا ذلك فقد كانت تلك المنطقة موحلة بسبب وفرة مياه الرى هناك ، فالجيوش الجرارة التى كان يرافقها عدد كبير من الخيالة والعربات وعربات النقل يستحيل عليها ان تسير فى تلك المنطقة الوعرة فضلا عن ان تقوم بمناورات عسكرية . وبعد انتهاء المعركة تراجع العشرة آلاف جندى وانسحبوا الى الجهة الشمالية الغربية عند شروق الشمس ، وكانت الشمس فى تلك الساعة ترسل اشعتها على اكتافهم اليمنى ؛ ولكن سرعان ما اربكوا اذ وجدوا انفسهم امام المياه المتدفقة التى اخذت تفيض من نهر الصقلاوية ، حيث خرب ارتاكسركس سد صدر الصقلاوية الذى كانت قد سارعت جيوش كورش الى العبور عليه قبل فتحه . ولم يكن يومئذ سدود او خنادق فى الجهة التى تمتد الى شمال تل صفيرة ، وانما كان سور الميديين على ما اظن يمتد من تل صفيرة الى عكركوف ومن هناك الى دجلة حتى يصل الى جنوب بغداد ؛ وكان هذا السور يحمى البابليين من غارات الآشوريين كما كان يحميهم من عدوان الميديين فى العهد الذى سبق العصر الفارسى . وكان نهر الصقلاوية يقوم بهذه المهمة منذ اقدم الازمنة ، ولكن بعد ان سد هذا النهر استعيض عنه بالسور المذكور ؛ ومن حسن الصدف ان ارتاكسركس قام بفتح هذا النهر فى شهر آب ايام

هبوط المياه ، والا فلو انه قام بفتحه ايام الفيضان لسبب للبلاد كارثة عظيمة .

٧٣ ـ اما جنود العشرة آلاف الذين كانوا لا يزالون فى جنوب سور الميديين فقد عبروا هذا السور فى نقطة تقع شرقى عكركوف متجهين الى الشمال ، وقد سلكوا طريقا ملتوية تدور حوالى منخفض عكركوف فعبروا فى طريقهم قناتين تتفرعان من نهر دجلة امام سد نمرود كانت ثانيتهما قناة الاسحاقى التى تقع مدينة ستاكى على ضفتها الشرقية ، وهذه المدينة لا يبعد موقعها عن مدينة الكاظمية الحالية الا قليلا . وقد عبروا نهر دجلة فوق جسر خشبى كان يستند على سبع وخمسين جسارة عائمة وهو ما يتفق مع عدد الجسارات التى يتألف منه الجسر الحالى لبغداد . وبعد هذا اضطروا الى ترك المنطقة المجاورة للنهر وذلك لانها كانت مليئة بالقنوات التى كان قد انشأها كورش الكبير وحول مياه ديالى اليها ؛ فتابعوا سيرهم ومعهم عربات النقل سالكين الطريق الحالى الذى يؤدى الى بعقوبة . وفى اوبيس عبروا نهر فسكس او نهر العظيم على جسر يبلغ طوله مائة قدم ومن ثم دخلوا الاراضى الصحراوية ؛ اما مدينة اوبيس هذه فيقول فيليكس جونس التابع للبحرية الهندية انها كانت تقع فى مكان تل منجور حيث كان

نهر العظيم يصب فى حوض دجلة القديم قبل ان يتحول الى مجراه الحالى . وفى شمال هذه المنطقة تنتهى سهول دجلة وتبدأ المنطقة الحجرية التى لا تصلح للزراعة والتى اطلق عليها زينوفون اسم صحراء .

٧٤ ـ وقد اعطى المؤرخون الذين كتبوا عن الاسكندر وصفا شيقا لكيفية رى البلاد وللصعوبات التى كان يجابهها البابليون فى سد القنوات ايام الفيضان وتطهيرها ايام الصيهود ، فهم يصفون عملية سد الجداول بعد الفيضان بانها كانت من اصعب العمليات .

٧٥ ـ وقد انجز الاسكندر المقدونى فى العراق فى الحملة التى قام بها لغزو الشرق مشاريع خطيرة تستحق الاعجاب والتقدير وتدل على عبقرية ونبوغ ذلك الفاتح العظيم ، فقد عالج بحكمة ونشاط مشكلة نهر الهندية (بالاكوباس) ؛ ثم ان مياه الرافدين كانت كلها تصرف لاغراض الرى فى غير موسم الفيضان ، وكان على الاسكندر ان يزيل تلك السدود التى كانت توضع فى وسط دجلة وذلك ليتمكن من ان يصعد بأسطوله الى النهر ، ذلك الاسطول الذى أتى به من الخليج .

٧٦ ـ ولعل اعظم رخاء شاهدته الدلتا انما كان فى ايام ملوك الفرس الساسانيين فى اول العهد المسيحى ، حيث كان جدول

النهروان الواسع الذى يبلغ عرضه اربعمائة قدم وعمقه خمسة عشر قدما يروى كل المنطقة الواقعة شرقى نهر دجلة ، كما كان نهر الدجيل يروى كل المنطقة الواقعة غربى النهر . واما الفرات فكانت تتفرع منه الاربعة جداول التى ذكرها زينوفون ، كما كانت هناك جداول اخرى تستمد مياهها من الفرع البابلى وذلك قرب مدينة بابل فتروى المنطقة التى تمتد الى حد مجرى دجلة القديم او فرع الحى الحالى . وقد شرح لنا اميان مرقلان الذى زار العراق فى القرن الخامس للمسيح حالة هذه المملكة فذكر انها كانت عبارة عن غابة خضرة من اقصاها الى اقصاها ؛ ويقول مؤرخو العرب للقرن السابع والثامن للمسيح انه كان يسمع صوت الديكة فى الصباح وهى تتجاوب على طول الطريق ما بين بغداد والبصرة .

٧٧ ـ وكانت مراكز الرخاء والعمران تختلف من حين الى آخر ، فبينما كانت تلو وسنكار واور فى الازمنة القديمة تمثل قلب المملكة وعرقها النابض ، اذ اخذت سيبار وبابل هذه المكانة فى العصر البابلى ثم اوبيس وطيسفون فى العهد الفارسى .

٧٨ ـ وفى القرن السابع للميلاد قام العرب فقضوا على حكومة فارس وأسسوا الكوفة وواسط والبصرة كعواصم جديدة تحل محل تلك المدن القديمة ؛ وقد مهد هذا السيل لظهور مدينة

بغداد ، تلك المدينة التى ظلت حتى يومنا هذا اعظم مدن العراق . وقد كان العصر الذهبى لبغداد يتمثل فى القرن التاسع للمسيح فى زمن هارون الرشيد الخليفة العباسى ، وبعد هذا أخذ رخاء المملكة يضعف بسرعة حتى جاءت الضربة الاخيرة التى وجهها المغول بقيادة جنكيز خان والتتر بقيادة تيمور خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . لقد كانت الكوارث التى تنتاب البلاد فى العهد القديم تنحصر فى اخطار الفيضان حين تطغى المياه ، اما الآن فقد صارت تغمر البلاد ببحر من الدماء ؛ وفى خلال عهد الارتباك والفوضى هذه تلاشى ما كان هناك من عز ومجد ورخاء ودمرت كل المشاريع والمنشآت القديمة الواحد بعد الآخر بحيث لم يبق اليوم شىء منها . لقد انهار سد نمرود الترابى الذى كان انشىء على نهر دجلة وهبط منسوب الماء فى النهر الى حوالى ٢٥ قدما فأدى ذلك الى جفاف النهرين العظيمين النهروان والدجيل ، وقد تحولت الاراضى الواقعة على ضفتى نهر دجلة فى القسم الاعلى من مجراه الى صحراء ؛ ولم يكن القسم الادنى من دجلة احسن حالا منه ، فحوالى مدينة الكوت شق نهر دجلة له طريقا من ضفته اليسرى وبدد مياهه فى الاهوار الواقعة على حدود فارس ، فى حين ان المجرى القديم الذى كان يمر فى واسط وتلو لم يعد يصلح لسحب

المياه الا فى ايام الفيضان وفى كميات محدودة . وفى الوقت نفسه انهار السد القديم الذى كان على نهر الصقلاوية فأدى الى اغمار المنطقة الواقعة غربى بغداد وضياع مشاريع الرى هناك ؛ اما القنوات التى كانت تأخذ مياهها من الفرات منذ زمن قديم ، وهى عيسى وصرصر وملكا وكوثى واراكتو وصراة والنيل والترس ، فقد عفت آثارها لكثرة الترسبات التى تراكمت فيها فانقطعت عنها المياه الجارية ، حتى انتهى الامر فى ايامنا هذه ان اصبح نهر الفرات البابلى مجرى صغيرا لا اهمية كبيرة له وصارت معظم مياهه تنحدر الى اهوار النجف . وباهمال نهرى دجلة والفرات وتركهما وطبيعتهما اقفرت الاراضى المرتفعة التى كانت تروى منهما فى الازمنة القديمة ، وصار النهران يجريان فى الاراضى الواطئة والاهوار الواقعة فى اقصى غرب وشرق الدلتا .

٧٩ ـ ولولا ادخال زراعة الرز فى العراق حيث ساعدت على تحول مساحات كبيرة من الاهوار الى حقول زراعية ثمينة لكانت الحالة اسوأ مما هى الآن بكثير ؛ ولا يعرف بالضبط الزمن الذى ادخل فيه الرز فى هذه البلاد اول مرة ، لكن هذا المحصول يلى التمور فى الاهمية بالنسبة الى حاصلات البلاد اليوم .

ـ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ـ

الفهرست

«ا»

ابراهيم الخليل ص ٣٧ ، ٦٥ .

ابسو (الآله) ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

ابي دبس (منخفضات) ص ٢١ .

اثيوبيا ص ٢٢ .

ارارات (جبل) ص ٣٨ .

اراكتو (قناة) ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٤ .

ارتاكسركس ص ١٣ ، ٣٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .

أرخ ص ٢٢ ، ٦١ .

ارمينيا ص ٣٨ .

الاسحاقي (قناة) ص ٨٠ .

اسحق ص ٤٠ .

اسرائيل (بنو) ص ١٤ ، ١٨ ، ٤٩ .

الاسكندر ص ٢١ ، ٨١ .

اسوان (خزان) ص ٣ .

آشور (بلاد) ص ٢١ ، ٢٢ .

الآشوريون ص ٧٩ .

اكاد ص ٢٢ .

الاكاديون (راجع الساميون) .

اميان مرقلان ص ٨٢ .

اوبيس (مدينة) ص ٤٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ .

اور الكلدانية ص ١٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٨٢ .

اوغسطين ص ١٨ .

اي ساجل (مدينة) ص ٥٥ .

ايا (ملك العمق) ص ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧١ .

«ب»

بابل ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٨٢ .

بابل (ابواب) ص ١٣ ، ٧٧ .

بابل (نهر) ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٤ .

البابليون ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٧٩ ، ٨١ .

بالاكوباس (نهر) ص ٢٢ ، ٦٢ ، ٨١ .

البحر الأسود ص ٣٣ .

بختنصر ص ١٤ .

بروكش ص ١٢ .

البصرة ص ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٨٢ .

بعقوبة ص ٨٠ .

بغداد ص ٢٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

بلاكوود (مجلة) ص ٧ .

بلد ص ٤٦ .
بوبيان (مدخل) ص ٤٧ .
بيل (الآله) ص ٧١ .
بينج (الدكتور) ص ٦٦ .

«ت»

تارح ص ٣٧ .
تلو (مدينة) ص ٨٢ ، ٨٣ .
تنازع البقاء ص ١٥ .
تيامات (تهومات) ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ .
تيمور ص ٨٣ .

«ج»

الجزيرة العربية ص ١٥ ، ١٦ ، ٢١ .
الجمل (واقعة) ص ٦٢ .
جندس (نهر) ص ٧٦ .
جنكيز خان ص ٨٣ .
الجنة (ابواب) ص ١٤ .
جنة الله ص ١٧ .
جنة عدن ص ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .
جونس (المستر فيليكس) ص ٨٠ .
جيحون (نهر) ص ٢١ ، ٧٣ .

«ح»

حابور (نهر) ص ٢١ .
الحبانية (بحيرة) ص ٢١ .
الحبانية (مشروع) ص ٤ ، ٢١ .
حداقل (نهر) ص ٢٢ ، ٣٣ ، ٧٣ .
حزقيال (النبي) ص ٢١ ، ٢٢ ، ٣٣ .
حمورابي (شرائع) ص ١١ .
الحويلة (منطقة) ص ٢١ .
الحي (شط) ص ٤٦ ، ٨٢ .

«خ»

خراسان (جدول) ص ٧٦ .
خزعل (الشيخ) ص ٤٠ .
الخليج الفارسي ص ١٣ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٨١ .
الخليفة (الواح) ص ٥٩ ، ٦٥ .
الخليفة (قصة) ص ٥٤ ، ٧٢ .

«د»

داروين ص ٦٣ .
دجلة ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .
الدجيل (نهر) ص ٨٢ ، ٨٣ .
دقل (نهر) ص ٢٢ .
دمشق ص ١٩ ، ٦١ .
ديالى (نهر) ص ٥٣ ، ٧٦ ، ٨٠ .

«ر»

رعمسيس (الملك) ص ٣٩ .

رمادي ص ٢١ ، ٢٩ .

رمزي (الكولونيل) ص ٣٦ .

روجرز (الدكتور ر. و.) ص ٦٧ .

الري (علم) ص ١٤ .

الري (نظام) ص ٣٠ ، ٣١ .

الري الحوضي ص ٤ ، ٣٥ .

ري العراق (المصادر عن) ص ١٤ .

الري المستديم ص ٤ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٧٤ ، ٧٦ .

«ز»

الزبير ص ٤٧ .

زيتوفون ص ١٤ ، ٣٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ .

«س»

الساسانيون ص ٨١ .

سامراء ص ٢٣ ، ٤٦ ، ٥٩ .

الساميون ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٦٢ .

سايس (الاستاذ أ. هـ.) ص ٨ ، ١٥ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٣ .

ستاكي (مدينة) ص ٨٠ .

سقراط ص ٧٧ .

سمرقند ص ٦١ .

سنكار ص ٨٢ .

سوريباك ص ٦١ ، ٦٥ .

سوزيانا (بحيرة) ص ٤٦ ، ٤٧ .

السومريون ص ١٠ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ .

سيبارا ص ٧٦ ، ٨٢ .

السيرافيم (ملائكة) ص ٧٣ .

«ش»

شط العرب ص ٤٨ .

الشنافية ص ٣٦ .

شنعار ص ٢٢ ، ٣١ ، ٤٠ .

شيراز ص ٦١ .

«ص»

صراة (نهر) ص ٨٤ .

صرصر (نهر) ص ٧٨ ، ٨٤ .

صغيرة (تل) ص ٧٩ .

الصقلاوية (نهر) ص ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ٧٩ .

«ط»

الطف (واقعة) ص ٦٢ .

الطوفان (قصة) ص ٥ ، ٣٩ ، ٤٩ .

طوفان نوح ص ٧ ، ١٠ ، ١٣ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ .

طيسفون ص ٨٢ .

«ع»

العبريون ص ١٠ .

عدن ص ٢٠ ، ٢١ ، ٤٣ ، ٤٤ .

عدن (قناة) ص ٤٤ ، ٧٢ .

العظيم (نهر) ص ٨٠ ، ٨١ .

العقبة (خليج) ص ٦٥ .

عكركوف (منخفض) ص٢٢ ، ٧٩ ، ٨٠ .

العمارة ص ٤٦ .

عمالیق ص ١٦ .

عنة ص ١٦ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٣ ، ٧٤ .

عيسى البدوى ص ٤٠ .

عيسى (نهر) ص ٧٨ ، ٨٤ .

«غ»

الغراف ص ٤٦ .

«ف»

الفرات ص ٤ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ .

فسكس (نهر) ص ٨٠ .

فيشون (نهر) ص ٢١ ، ٧٣ .

«ق»

قابيل ص ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ .

قاديش باريتا ص ١١ .

قاين ص ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ .

القرنة (راجع الكرنة) .

القناطر الخيرية ص ٧٥ .

«ك»

كارون (نهر) ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ .

الكاظمية (مدينة) ص ٨٠ .

كالة ص ٢٢ .

كاوس (الآله) ص ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ .

كربلاء ص ٢١ .

الكرخة (نهر) ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ .

كرمة على ص ٥٩ .

الكرنة ص ٤٦ ، ٥٩ .

الكوت ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٣ .

كوثا (نهر) ص ٢٤ ، ٣٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ٨٤ .
كورش الصغير ص ١٣ ، ٣٣ ، ٧٧ ، ٧٩ .
كورش الكبير ص ٧٦ ، ٨٠ .
كوش ص ٢٢ ، ٢٤ .
كوشن (ارض) ص ١٠ .
الكوشيون ص ٢٢ ، ٢٤ .
الكوفة (مدينة) ص ٨٢ .
الكوفة (نهر) ص ٢٢ .
كونكسا (معركة) ص ١٣ ، ٣٣ ، ٧٨ .
الكويت ص ٤٧ .
كينغ (الدكتور) ص ٤٣ .

«ل»

لارسا ص ٦١ .
لاكاش ص ٤٦ .
لوجال دول ازاجا (الآله) ص ٥٥ .

«م»

المحمرة ص ٥٠ .
المد والجزر ص ٤٥ .
مردخ (آله البابليين) ص ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .
ملكا (نهر) ص ٧٨ ، ٨٤ .
منجور (تل) ص ٨٠ .
موسى (شريعة) ص ١١ .
موسى (النبي) ص ١١ ، ٢٢ ، ٦٥ .
الميديانيون ص ٦٥ .
الميديون ص ٧٩ .
الميديين (سور) ص ٧٩ ، ٨٠ .

«ن»

الناصرية ص ١٩ .
النجف (اهوار) ص ٨٤ .
النجف (مدينة) ص ٣٦ .
النرس (نهر) ص ٨٤ .
نصير (صحراء) ص ٦٧ .
نمرود ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٤ .
نمرود (سد) ص ٨٠ ، ٨٣ .
النهروان (جدول) ص ٨٢ ، ٨٣ .
نوح ص ٥ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ .
نيغور ص ٦١ .
النيل (فرع من الفرات) ص ٦١ ، ٨٤ .
النيل (نيل مصر) ص ١٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٥ .
نينوى ص ٢٣ .
نيبور ص ٣٨ .

«هـ»

هارون الرشيد ص ٨٣ .
الهندية (سدة) ص ٤ .

الهندية (نهر) ص ٢١ ، ٦٢ ، ٨١ .
عور عبدالله ص ٤٧ .
عيت ص ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٧٤ ، ٧٧ .
عيرودوتس ص ٧٦ ، ٧٧ .

«و»

وادى البطن ص ٥٠ .
واسط (مدينة) ص ٨٢ ، ٨٣ .
وان ايس (المستر) ص ٣٦ .
وولى (المستر ليونارد) ص ٥٠ .

«ى»

يعقوب ص ٤٠ .
يهاساجل (معبد) ص ٥٩ ، ٦٢ .
يهوا (اله السومريين) ص ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ .
يورك ص ٣٨ .
يوسف ص ٣٢ .

مكتبة مديرية الري في العراق
IRAQ IRRIGATION DEPARTMENT'S LIBRARY COPY